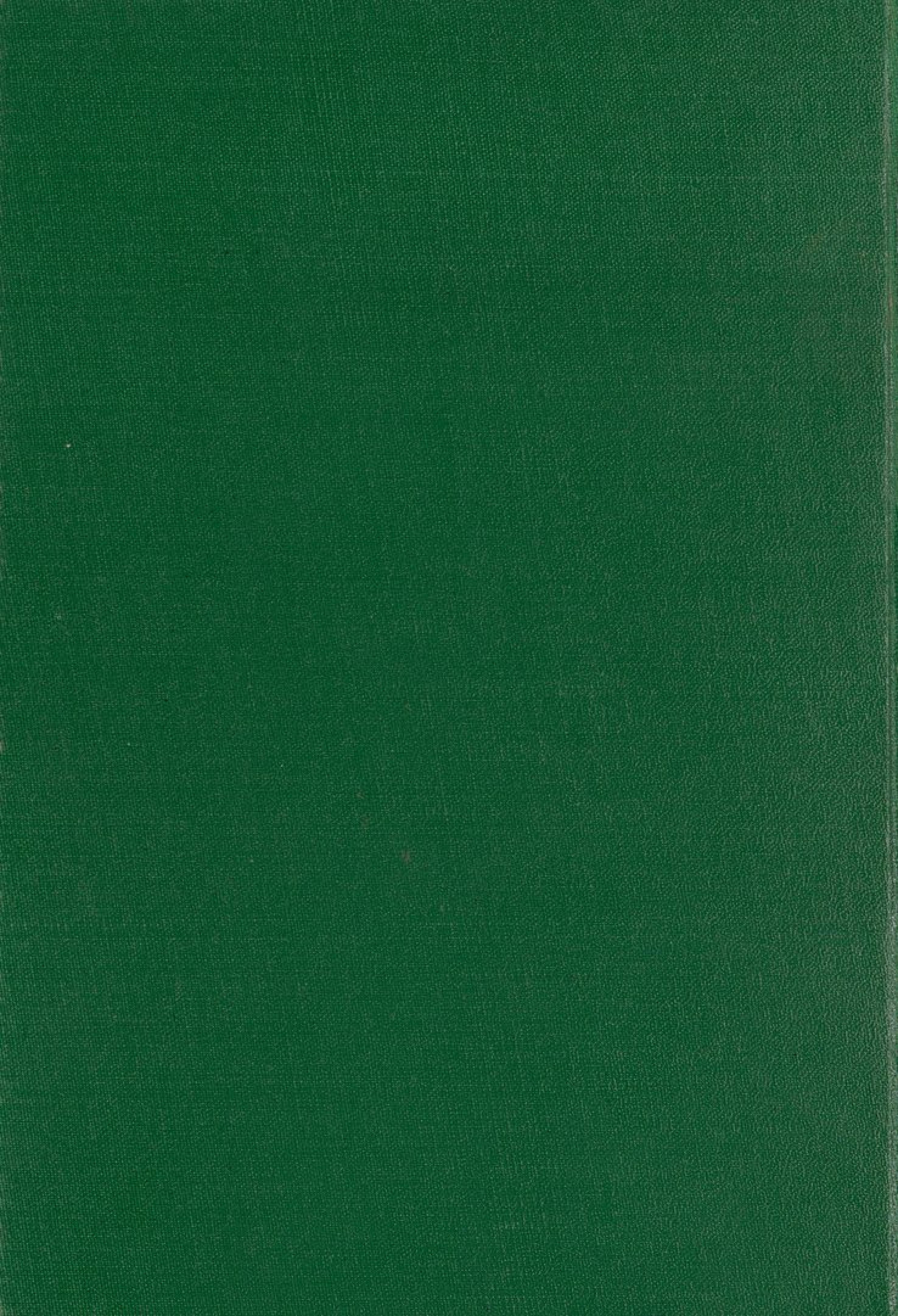
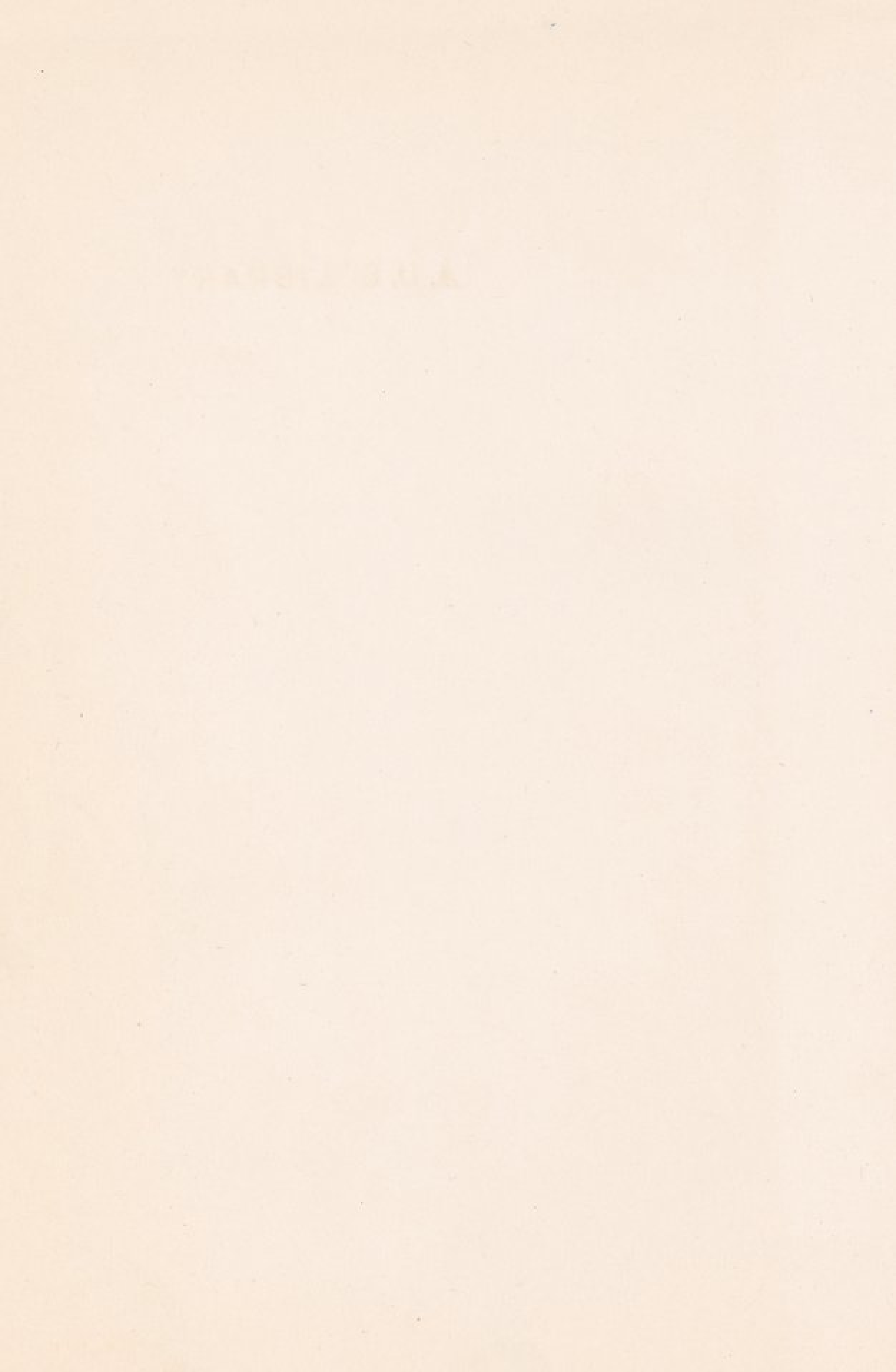
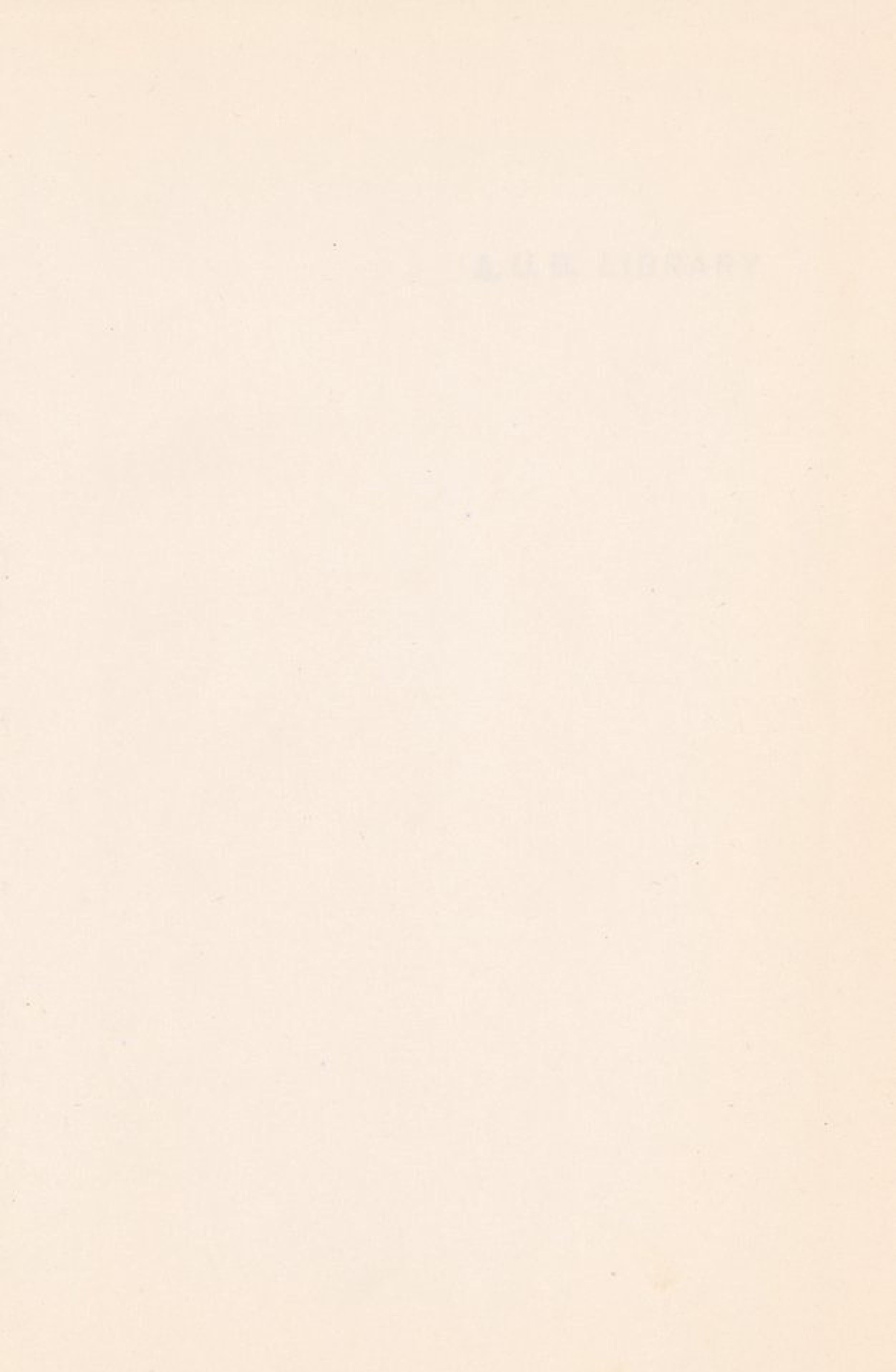
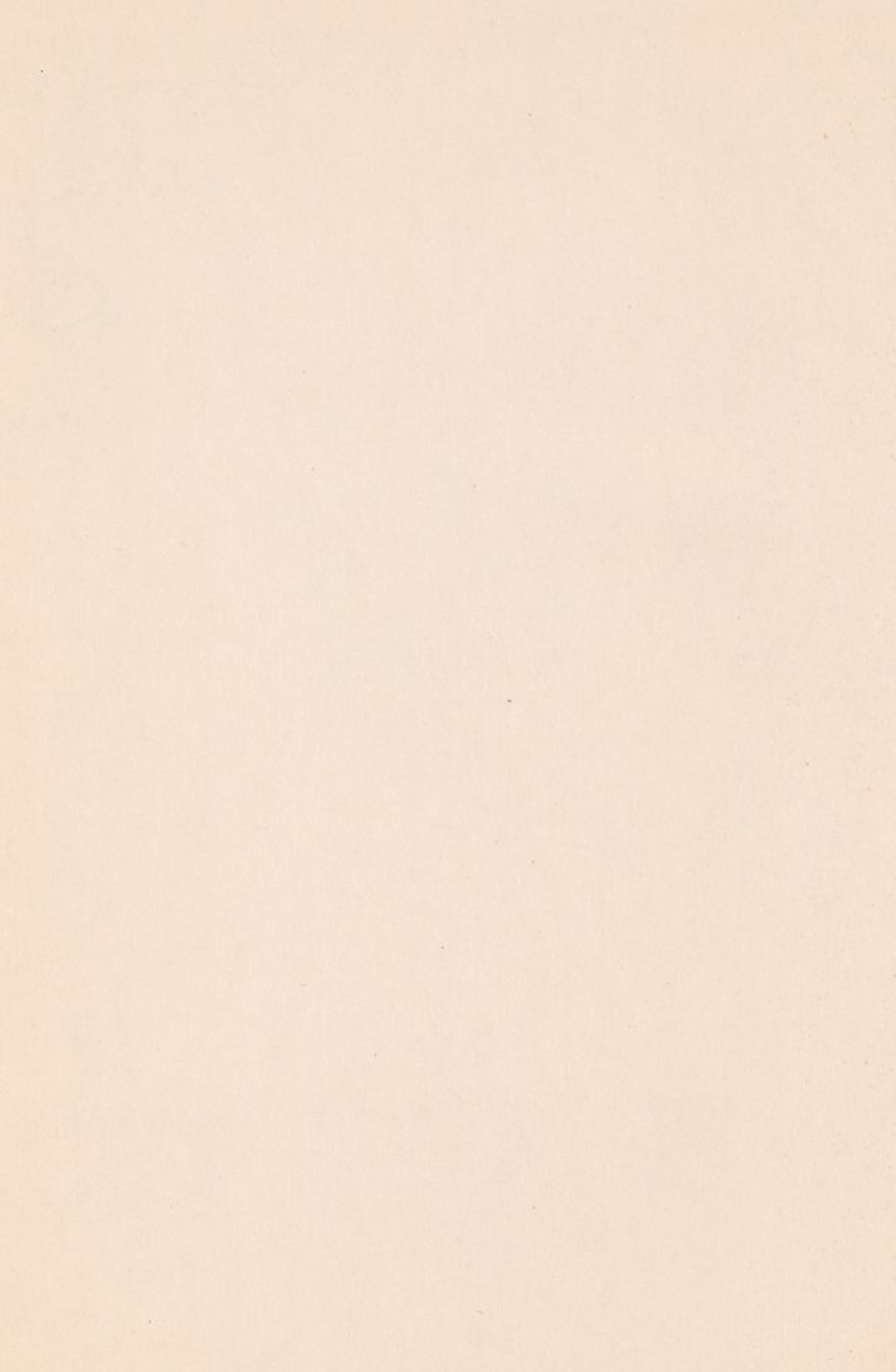
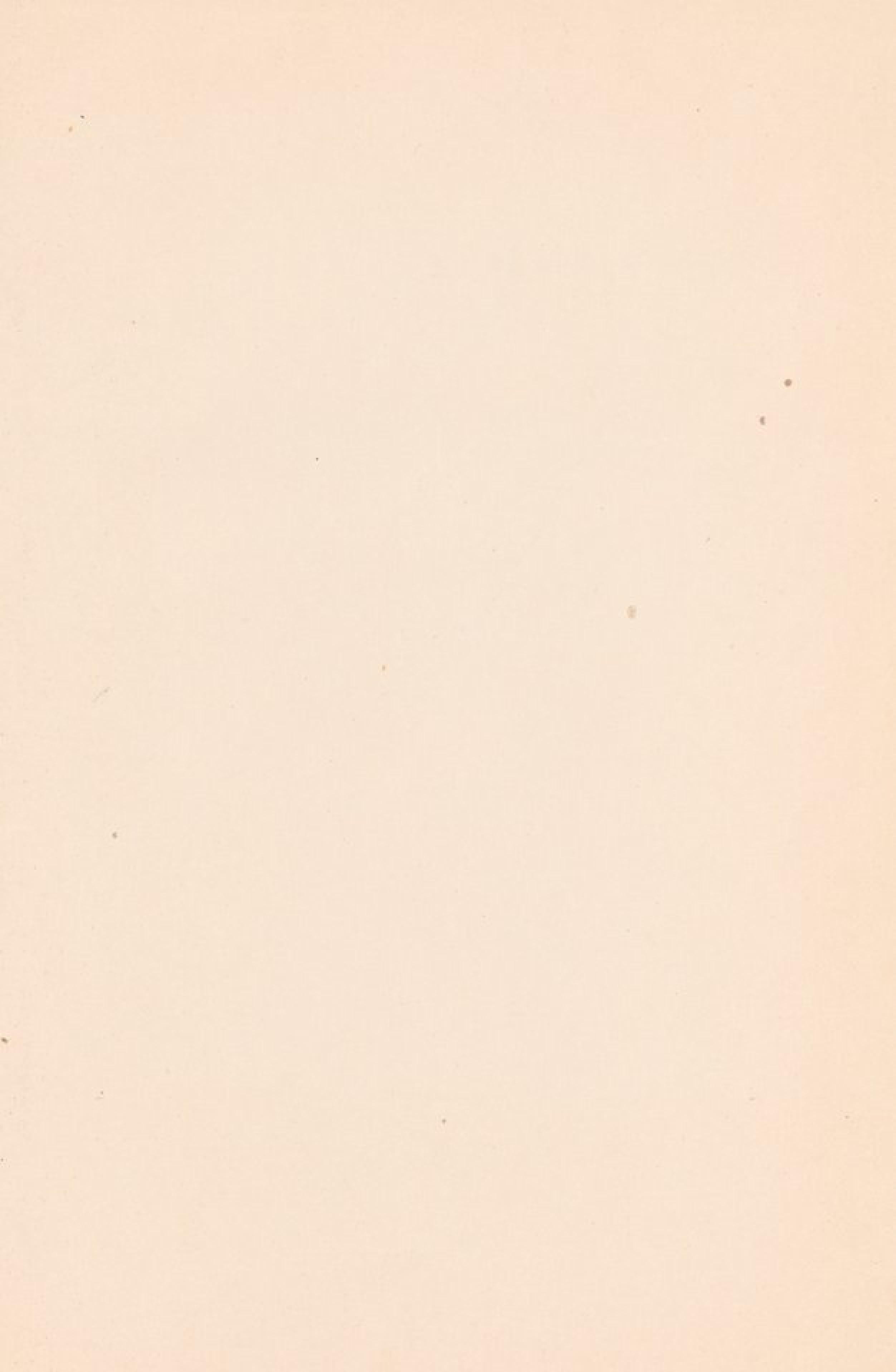






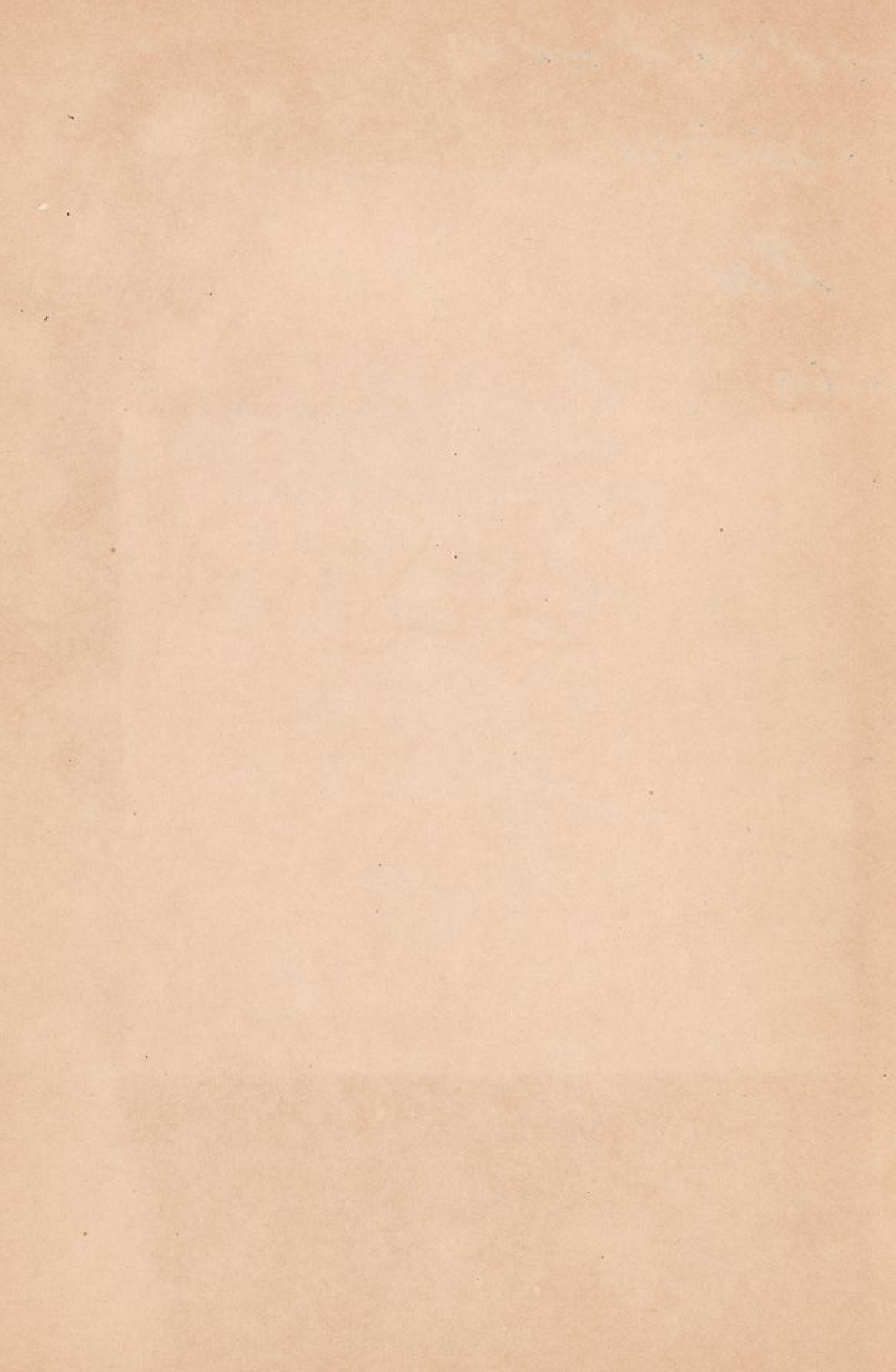




الى الأديب الكبير الأستاذ ألبير أديب ،

وداداً وتقديراً ،

١٢ آذار ـ ١٩٤٨



طاغور



نقله
باذن من ورثة طاغور
يوحنا قمير

نال هذا الديوان جائزة نوبل ،

وطبع ، سنة ظهوره ، ١٤ طبعة .

يُدعى رابندرا – وتفسيره الشمس –
لانه سيجوب العالم، وسيهتدي الناس بنوره.

والد الشاعر «القديس»

دافندرا نات طاغور

لناقل هذا الكتاب :

فلاسفة العرب :

ابن الفارض
ابو العلاء المعري
ابن خلدون
الغزالي

النقل صراع بين اثنين ، بين الامانة للاصل وصفاء لغة الناقل ، او قل بين المؤلف والناقل .

والناقل بعد ، حين يعرّب مثل هذا الديوان ، يحتاج الى بصيرة بجو الالفاظ ، وتفهم التقطيع ، كي لا يفقد الاصل اتجاهه البعيد ، وايقاعه السوي ، ويحتاج الى تفهم المرمى ، وتقبل الابهام ، دون ان يشوّه اصلا ، او يفرض تأويلا .

تلك عقبات لاقينا منها جما ، وعانينا في تذليلها صعبا . وكم مرة كدنا نلقي القلم ، وننهى عن نقل الفن . وكانت التجربة تزداد قوة والحاحاً ، كلما ازددنا بالنقل عناية وتشذيبا .

ولكنه اقتناع بنفع ما نعمل تغلب على التجربة . وانها متعة الفن وقتنا اليأس ، وعبثت بالعناء .

عسى نفس المتعة تغري الزاهد ، وتفتن الوالج . وعسى سحر الطريق يملأ العين ، ويحجب الهنات .



طاغور

١٨٦١ - ١٩٤١

بلاد طاغور نائية ، ولسانه غريب ، ونتاجه الجمّ مجهول . لذا نحن اعجز من ان نعرّفك بطاغور ، من ان نحلل لك عناصر فنّه ، وغنيّ فكره ، ومن ان نطلعك على كل ما ابدع وشاد .

وانما هي هنات مبعثرة ، جمعناها من مقدمة او مقال ، علنا نغريك بالاستزادة ، وبالمساهمة في درس طاغور .

وكنا اقتصرنا على هذه الهنات ، وفي النفس غصّة . ولكنه حسن الطالع ، واذا يد عابرة تحمل الينا « ذكريات » طاغور !

وذكريات طاغور هذه كتاب للشاعر روى فيه احداث حياته الخارجية ، وقصة تكوينه الفنيّ ، الى يوم وعت النفس كل ما فيها ، وبلغ الشعور ذرى نضجه . لقد كتب طاغور ذكرياته هذه سنة ١٩١٢ ، السنة نفسها التي نشر فيها « قربان الاغاني » !

واذاً ما نعرضه عليك مزيج من تلك الهنات المجموعة ، ومن هذه الذكريات . وهو ان لم يروِ كل الغلّة ، ويستوعب كل طاغور ، فانه

يريك التربة والبذور ، ويريك جذورا غذت الغصن والزهر ، فكان الثمر الشهي ، وكان هذا الديوان .

◉ ◉ ◉

في كلكتا، في السادس من ايار، سنة ١٨٦١، ولد رابيندرا نات طاغور .

وكانت اسرة طاغور من اشهر الاسر البنغالية علماً وغنًى وجاهاً . كان جدّه من اكبر مشجعي الآداب والفنون ، وكان ابوه من مجدّدي الدين البرهمي ، وكان جوّه العائلي جو موسيقى وشعر .

درج طاغور عصيّ الطبع ، نفوراً من كل نظام ، فشقّ على طبعه المرح جو المدرسة القاتم ، وجو الدرس ايضاً . وانما جدّ الاهل ، فارسلوه الى المدارس ، واتوه بالاساتذة الى البيت ، وتعاطى بعضهم احياناً تعليمه ، فالمّ بالبنغالية ، لغة بلاده ، ثم بالانكليزية ، لغة الحاكمين .

ويحدثنا طاغور عما لاقاه من عناء في درس الانكليزية ، كما انه يشكر اخاه الذي درّسه البنغالية اولا : « على الصبي ان يقتبس العلم، كما يتناول الجسدُ الغذاء . ان شهوة الاكل ، اذا استيقظت عند اول لقمة ، بدأ عمل المعدة قبل امتلاء البطن ، وبدأ فرز سوائل الهضم . وان ما يحدث للصبي البنغالي هو عكس ذاك ، حين يلقنونه العلم باللغة الانكليزية . ان اول لقمة تخلع فكّه ، ويثور الفم لدى هذا العنف . ولا يأتي زمن يدري فيه الصبي ان ما القموه اياه لم يكن حجراً ، بل طعاماً سائغاً ، الا ويكون نصف عمره انقضى . وان تلقين العلم بالانكليزية كان قد طغى على بيئاتنا الهندية ، ولكنه اخي الثالث هو الذي تنكر للنزعة ، ودفعنا الى استعمال لغتنا الخاصة في اقتباس العلوم . »

وحرص اخي طاغور هذا على اللغة البنغالية كان مظهراً من مظاهر حبه لبلاده، يوم لم يكن المثقفون في الهند يبالون بلغتهم، او يأبهون لتراثهم الفكري. وان الوالد كان قد غذا في الاولاد هذا الحب، غذاه بالقول والمثل: ارسل له مرة نسيب هندي رسالة بالانكليزية، فردّها حالا!

وان طاغور كان تلميذاً طائشاً حقاً، او قل انه كان روحاً غنيّة، وذوقاً خاصاً، وطبعاً عنيفاً، فلم يجد في ما امّ من مدارس الغذاء الصالح الملائم، ولم يقوَ على الاصغاء لاستاذ، او الانكباب على كتاب. وانهم اساتذته في البيت، وانه ابوه واخوته، وانهم اصدقاء الاسرة الادباء، هم الذين تعاونوا على تثقيفه. ولكن طاغور لم يناهز الخامسة عشرة، ويشعر ببعض القدرة على التحرر، حتى جمح امام كل تعلم، ونفر من الاصغاء لاستاذ، حتى قنط منه اخوته، وقنطوا من مستقبله!

ولكن اباه اعاد عليه الكرّة، حين بلغ السابعة عشرة، وارسله الى انكلترا، ليدرس فيها الحقوق.

وصادف طاغور ثم الوحشة، كما لاقى العطف والايناس، ولكن انى له ان يرغم النفس على علم جافّ، وان ينصرف الى درس الحقوق؟ وان طاغور قد انصرف، في انكلترا الى شؤون اخرى!

لقد جرّب في ما جرب درس اللاتينية. وان الاستاذ قد اغراه اكثر من اللغة. ذاك ان الجميع كانوا ينظرون الى هذا الاستاذ نظرة الهازىء، لانه كان يدعو الى نظرية فلسفية، هذا لبّها: في حقب مختارة من احقاب التاريخ، تلد فجأة فكرة واحدة لدى كل الجماعات البشرية، مرتدية مظاهر مختلفة تتلاءم ومستواهم الحضاري، وذلك دون سابق صلة بين الجماعات او الافراد. وان طاغور قد وعى هذه النظرية، وآمن الى حد بصحتها، ولكنه لم يعِ شيئاً من اللغة اللاتينية. وقد الحّ كثيراً على استاذه كي

يقبض أجره منه ، لان الاستاذ رأى بصراحة انه اضاع وقت تلميذه !

وان طاغور قد اقبل ، في انكلترا ، على درس ادبائها ، على مطالعة شكسبير وملتون وبيرون . ويلاحظ شاعرنا ، بعد ذاك ، ان الأدب الانكليزي كان يثير شعوره ، اكثر مما يغذّيه ، وان ما كان يغريه منه هو وصف الشهوات الثائرة : « ان الاعتدال ، طابعَ الفن الحقيقي ، لم يلج بعد الادب الانكليزي . ان الشعور احد عناصر التأليف الفني ، لا موضوعه . ان هذا الموضوع لجمال غنيّ خصب ، لا تكلّف فيه ولا تطرف . »

واهتم طاغور ايضاً للموسيقى ، او قل للغناء . وله مقارنة طريفة بين الغناء الاوربي وغناء الهند ، نثبت لك بعض مقاطعها ، لما بين الغناء الهندي وغنائنا من شبه . قال طاغور ، بعد سماع احدى المغنيات الشهيرات : « لقد سمعت ، لاول مرة ، غناء لا التواء فيه ، ولا اجهاد نفس . ان امهر مغنّينا لا يقوى على اخفاء جهده ، ولا يخشى الصرخة الفادحة ، او الخفتة الهامسة ، وان لم يقوَ صوته على ذلك او يلن له . ان العارفين باصول الغناء ، في بلادنا ، يتغاضون بسهولة عما في الاخراج الصوتي من نقص ، عما في الصوت من جفاء ، او في حركات المغني من تنافر ، بل قد يرون في هذه الهنات وسيلة لاظهار جمال النشيد ... ولكنّ شيئاً من هذا لا يعرفه الاوربيون . انهم يطالبون المغنّي بالاتقان الكلي ، حتى في دقائق الاخراج ، ويعدّون اقل نقص في غنائه مانعاً له من الظهور امام الناس... يهمنا نحن ان نسمع الاغنية ، اما في اوربا فيهمهم سماع المغنّي ...

« على اني لا ازال اعتقد حتى اليوم ان الموسيقى الاوربية وموسيقانا يقطنان امصارا متباعدة ، ويلجان القلوب من ابواب مختلفة . يبدو لي ان الموسيقى ، في اوربا ، صدى الواقع ، ولهذا تتنوع اغانيهـــا تنوع الحياة ... اما غرض اغانينا فهو الولوج الى خفايا الروح ، الى صميمها

المجهول . هناك يجد العابد هيكله، واللاهي جنّته ، اما رجل المتاجر فلا يجد موطئاً لقدميه . »

اقام طاغور في انكلترا سنة وبعض السنة ، درس فيها ادبا ، واصغى الى غناء ، ولكنه لم يدرس ما لاجله مضى .

ويعود طاغور الى وطنه ، وقد خيّب آخر امل من آمال ابيه ، وخاب كل امل له في ارضاء اهله .

⊙⊙⊙

على ان يداً خفيّة كانت تقود طاغور ، هي يد الفن والنبوغ . ان طاغور ، حين كان يثور على كل قيد ، ويعصى كل توجيه ، كان يلبّي دعوة طبيعته الخاصة ، دعوة الفنّان . وان الطبيعة ، اذا دعت ، الحّت ، وقهرت ، واستبدت . ان طاغور احسّ ، منذ صغره ، بميل فطري الى الشعر ، وانه ، اذ تحرر من كل سلطان ، لم يقدر على التحرر من هذا الميل ، بل كان يسير معه ، ويسابقه ، شأنه في ذلك شأن كل فنّان موهوب .

⊙⊙⊙

كان طاغور ابن ثمان ، يوم دعاه احد رفاقه ، وعلّمه وزنا من اوزان الشعر ، وحثه على النظم .

وبدأ الصبي النظم ، واقتنى دفتراً ازرق اللون ، وملأه صفحة صفحة . وكان ينشد قصائده اهله ، وكان يزعجهم بانشاده ، وكان اخوه البكر يشاطره اعجابه بفنه ، ويضافره على ازعاج الناس . لقد كان يحمل يومذاك كل شعره في يده ، لقد كان « الشاعر ، والطابع ، والناشر ، وكان اخوه يقوم باعباء الدعاية ! »

وقد كانت الدعاية ناجحة، وبدأ طاغور يسترعي نظر بعض اساتذته، وبدأ يتدرن تحت ارشادهم . وكان صوت طاغور جميلاً، فكان ينظم الاناشيد، ثم يغنّيها .

وسار طاغور فى هذا السبيل، يطالع ما يجد من ادب، ويرافق من يتذوق الشعر او يجيد الغناء، وينظم ما يعرض له من خواطر، وهمّه الاكبر ان يضارع كبار الشعراء .

ثم اتى دور الظهور بين الناس، فنشر قصائد في مجلة شهرية، ثم نشر مقالات نقدية . ويشفق طاغور من يد تجمع هذه القصائد، وتعرضها على الناس يوم الحساب، كما انه يشكر الله، لان « امواج النسيان الرؤوف طوت دفتره الازرق، ونجّته من خطر الظهور في وادي الدموع هذا . »

ثم يؤسس اخوه (جيوتيرندرا) مجلة، ويعينه احد اعضاء التحرير فيها . وكان طاغور في السادسة عشرة، فاندفع — ككل ناشيء — يطلب الشهرة عن طريق النقد الجارح، او يطلبها في قصائد ينشرها على الناس .

ثم يتحمس له احد الاصدقاء، فينشر له نشيداً اعجبه : « قصة شاعر . » ويأسف طاغور على ما تكبّده الناشر من خسارة، كما يرى ان ما ينظمه شاعر في مثل عمره لا يمكن ان يكون صالحاً للنشر : « ما من ريب في ندم مؤلف، زمن النضج، على ما يكون قد نشره زمن الصبى . »

واثناء ذاك سافر طاغور الى انكلترا، ثم عاد، وبين الذهاب والاياب، نظم قصيدة جديدة : « القلب الكسير » . ورأيه في قصيدته هـــذه ان الظـــلال لا تزال تطغى على انوار الحق، وان حظ الغموض والوهم فيها كبير .

ثم يكتب طاغور ثلاث مسرحيات للغناء، ويتعاون مع اخيـــه جيوتيرندرا على وضع الحان، تستوحي في بعضها الالحان الاوربية . وكان

طاغور يمثل في رواياته هذه، وكان يلاقي دائماً الاعجاب .

ويبلغ طاغور العشرين، وهو يتدفق حياةً، وشعراً، وغناء، ويمرح في جو حر طليق .

وهنا يخطو الشاعر خطوة جريئة في فنه، فيتحرر من كل تقليد في الشعر، ويزهد بمسايرة اذواق الناس، وباثارة اعجابهم، ويندفع ينظم دون تكلف او تصنع، ودون تقيد بمألوف الاوزان . وان خير ما نظمه في هذه الحقبة قد جمع في ديوان « اغاني المساء » .

ويرى طاغور ان « اغاني المساء » لم تتلقح بعد بلقاح الواقع، بل هي صدى لخيال شرود، وشعور لا يعرف سبباً او هدفاً . وان الناس قد رأوا فيها تمتمات شاعر، يشوبها الغموض، وتعوزها الدقة . ولا ينكر طاغور غموضها، ولكنه يأبى ان يكون تعمده تعمداً : « ليس الغموض غريباً عن الطبيعة، بل هو احد اطوارها . وليس يتجه شطر الحق في الادب، من ينكر الشعر على ما لا يبلغ الوضوح الكامل . انه حين يعبّر الشاعر تعبيراً صحيحاً عن طور من اطوار حياتــه، فهذا التعبير جدير بالبقاء . التقصير في التعبير وحده عيب ... والجريمة، في الادب، ليست في الحالة النفسية، بل في قصور التعبير عن وصف تلك الحالة . »

ثم يخطو طاغور خطوة ثانية، او قل يغور فيه عالم، ويلد آخر .

كان شاعرنا يتمشى على سطح بيته، وكانت شمس الغروب تلوّن الارض والشفق باصباغ واصباغ، واذا به يذهل عن نفسه، ويأخذ عليه هذا المشهد كل وعيه، فيتراءى له كل ما في الكون من حبور وجمال، ويرى ان لا شيء باطل في هذا العالم، وان امواج الفرح تتفجر من كل نواحيه . غاب عنه شخصه، ونسي نفسه، فظهر له العــالم في مظهره الحقيقي الفتّان .

على اثر هذه الرؤيا ، كتب طاغور ، دفعةً واحدةً ، قصيدته « يقظة الشلال » . ثم تبدلت نظرته الى الناس فلم يعد يأبه لنواحي النقص فيهم ، بل اصبح يرى فيهم الانسان ، ويرى جزءاً من هذا الكون ، ويرى ما بينه وبينهم من نسب . وهكذا اصبح يستقبل بفرح من كان يكره بالامس مجالسته ، وتحرر من كل ما كان يصطنعه مع الناس من كذب ومن رياء . ان العالم ظهر له في وحدته الشاملة ، فاصبح الانسان ، ومساكن الانسان ، واعمال الانسان ، كأنها نبرات لحن واحد : « الصديق يبسم لصديقه ، والام تلاعب طفلها ، والبقرة المضطجعة تلحس خاصرة جارتها ، ووراء هذا كله كيان لا محدود يتصل بالنفس اتصالا وثيقاً ، اتصالا يكاد يكون مؤلماً . »

في هذا الجو من الشعور ، نظم طاغور مجموعة شعرية جديــدة : « اغاني الصباح » . وقد علّق ، بعد ذاك ، على هذه المجموعة فقال : « ان الانسان ، اذا ما بلغ حداً من العمر ، رأى العالم فارغاً ، وان كل شيء في قلبه . ان هذا القلب يستيقظ ، وفيه نهم ملحاح الى استيعاب العالم بين طيّاته . ثم يجري الزمن ، واذا بالانسان يميز بين ما يحتاج اليه ، وما لا يحتاج ... ان نبغِ نيل العالم كله ، لم ننل شيئاً . انما ان تقنا الى شيء محدود ، ونزعنا الى هدف معيّن ، لاح لنـــا حينئذٍ منفذ الولوج الى اللامتناهي . »

ان طاغور حين كان صبياً في عهدة الخدم ، كان كالسجين بين جدران البيت ، وكان خادمه يخطّ حوله دائرة ، ويحرم عليه الخروج منها ، وكان هو يتألم في سجنيه هذين ، ويحن الى الهواء الطلق ، والى المرح خارج الدار . وانه قد شعر بغبطة فائقة ، يوم دعاه ابوه كي يرافقه الى جبال حملايا ، يوم اخرجه من كهف الى قمة .

وانها نفس الغبطة قد خالجت فؤاد طاغور ، يوم خرج من عالمه الداخلي ، ومن سجن قلبه وشخصه ، يوم تداعت الحواجز بينه وبين هذا الكون ، فرأى ما بينهما من صلات ، واحسّ بما يجمعهما من هيام ، وغنّى « اغاني الصباح . »

وان آخر اغاني الصباح هذه قصيدة عنوانها « الصدى » . وقد كانت هذه القصيدة غامضة ، مما دفع صديقين الى ان يتراهنا على معناها ، ويقصدا طاغور كي يشرحها لهما . وعجز طاغور عن شرح قصيدته ! وهل الذنب ذنبه ؟ انك حين تشمّ عبير الزهر ، وتتساءل عن المعنى ، فالجواب هو هذا : ليس ثم معنى ، ان ثم عبيراً ! « ليس التعبير عن شعور عرض حقيقة من حقائق الكون ، او اعلان واقع علمي ، او ايضاح قانون اخلاقي . ان هو الا صدى لما يحدث في النفس ، شأنه في ذلك شأن دمعة في جفن ، او ابتسامة على ثغر . قد يكون ثم ما يجنيه العالم او الفيلسوف ، انما ليس الى هذا يهدف الفنّان ... واني حين نظمت قصيدتي هذه ، ما تعمدت ان القي على الناس احجيّة ... انه حين تتفجر جداول النغم من نبعها الاصيل ، من قلب الكون ، يرّجع صداها محيّا محبوب ، ومشهد فتّان ، ويلج هذا الصدى منا القلوب . ومن يدري ؟ لعل ما نحب هو هذا الصدى ، لا الاشياء التي ترّجعه ، والا لمَ نهيم اليوم بما لم نكن نعبأ به امس ؟ ... ان الموج المتدفق من اللامتناهي الى المتناهي هو موج الحق والخير ، وان له قوانينه واشكاله . اما صداه الذي يعود الى اللامتناهي فهو الجمال والفرح ، وكلاهما غير محسوس او ملموس . وانه هذا الصدى هو الذي يخرج بنا من حدود كياننا . هذا ما حاولت التعبير عنه في نشيد « الصدى . »

ويخبرنا طاغور ان اغاني الصباح كانت خاتمة الفصل الاول من فصول

حياته . وانها الاثر الذي تكوّنت فيه شخصية الشاعر ، او قل تكوّن لون ناتىء من الوان فنه الباقي . قال طاغور : « ان الحرية تجوز القانون، ثم تسنّ لنفسها قانوناً تتقيد به ، وهذا هو الاستقلال الشخصي الحقيقي . » وانه في اغاني الصباح قد جاز قوانين ، وسنّ لفنه قوانين !

◎◎◎

ثم تنتقل اسرة طاغور الى « كروار » فيؤلف هناك مسرحية شعرية : ثأر الطبيعة .

بطل هذه الرواية ناسك اخذ على نفسه ان يقهر الطبيعة ، فيتحرر من كل شهوة ، وكل حب ، ويغوص في نفسه للتعرف على اعماقه . ولكن الطبيعة لا تقهر ، واذا بنيّة تحيد به عن قصده ، وتعيده الى العالم ، والى الحب . وحينئذٍ يرى الناسك ان اكبر شيء كامن في اصغر شيء ، وان اللامتناهي ماثل في حدود الشكل ، وان النفس تجد في الحب حريتها الابدية .

ويؤكد لنا طاغور ان هذه المسرحية فاتحة نتاجه الادبي التالي ، وانه — حتى كتابة ذكرياته — قد عاد في كل تآليفه على هذه الفكرة : الفرح الاكبر رهن ادراك اللامتناهي في صميم المتناهي .

◎◎◎

وكان طاغور قد بلغ الثانية والعشرين ، وكان ان عرضت له فتاة أعجبته ، فتزوجها .

◎◎◎

ويتابع طاغور النظم ، وفي كل اناشيده صدى ذاك الفرح الشائع في الكون ، في اجلّ شيء فيه ، واتفه شيء .

وتصدر له مجموعة جديدة ، « رسوم واناشيد » ، وفي كلها عناية بتوافه الاشياء : ان الروح ، اذا تجلى لها الكون في وحدته الشاملة ، احست برعشة اللقيا ، اية كانت نقطة الاتصال ·

ثم تظهر مجموعة اخرى ، « السهل والحزن » ، وفيها يتوسل الشاعر الى الناس كي يفتحوا له ابواب منازلهم المجهولة ، ويشركوه في حياتهم البشرية . ان روح الشاعر الفردية تبتهل الى الحياة الشاملة ، وترجو الانغماس في خضمها الرحب العطوف ، انها تتوق الى السير في التيّار الجارف النقي ، تيّار الاحياء الهازجين .

وكان هذا الشعور مصدر الم لطاغور .

ذاك انه كان يرى بلاده لا تجاري بلدان العالم في الحياة ، ولا تتصل بها ، ولا تساهم في مغامراتها . وكان يرى الاحزاب السياسية ، في بلاده ، فارغة من كل شعور قومي ، جاهلة حاجات الوطن ، غافلة عن مصالحه الحقيقية ، كما يرى ما في هذا الوطن من عوامل التفرقة ، والتطاحن ، والتخاذل . بينا الاوطان تسعى ، وتهزج ، تقف بـــلاده كالمتسولة ، تلقي على الباقين نظرات الحسد ، وبينا ابناء الارض يشيدون اوطانهم ، ويضحون في سبيلها بالنفوس ، يتناحر ابناء الهند ، ويتصارعون ! ويود طاغور لو تهدمت حواجز الاوطان ، وانهارت حزازات الهنود ، واندفع الناس اخوة في تيار الحب !

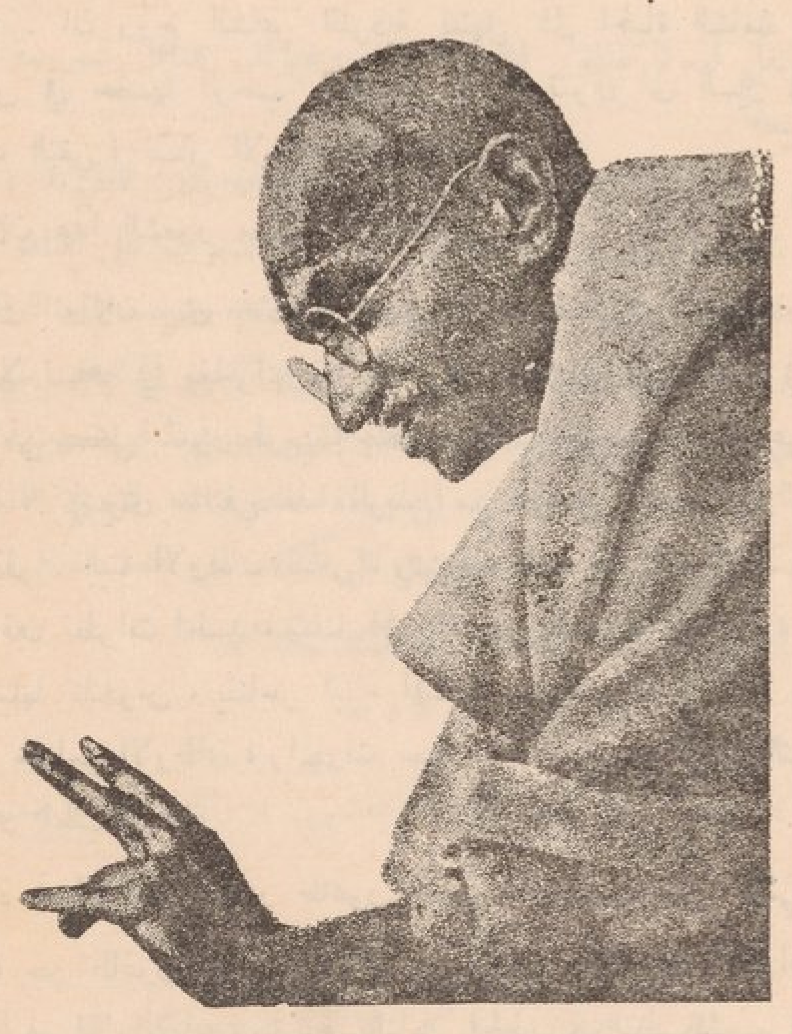
واذ نحدثك عن شعور طاغور القومي ، فلنسهب بعض الشيء .

ان جو طاغور العائلي كان جو شعور وطني حارّ ، وان طاغور اندفع ، في اول شبابه ، يلقي في الناس الخطب ، وينظم للشعب الاناشيد ، ويدعو الى الجهاد في سبيل الحرية . على ان ما كان يطغى على ابنـاء

وطنه من غفلة ومن جمود ، من اثرة ومن تنابذ ، حدّ من اندفاعه ، وانكمش به خارج المعركة .

اجل انه سيظل الوطني المخلص ، وسيكتب قبيل موته الى غاندي :

اما نحن ، اعوان المهاراج غاندي ،
فهدف واحد يجمعنا .



لا نملأ اكياسنا من اسلاب الفقراء ،

ولا نجثو امام غنيّ .
ان هجموا مهددين ،
فصوّبوا الكلمات ،
او رفعوا العصيّ ،
بسمنا قائلين :
ان شرراً يتطاير من عيونكم
قد يوقظ الطفل مذعورا في مهده ،
ولكن من يخيف ذاك الذي لا يخاف ؟
ما من حيلة ديبلوماسية
تشوّه كلماتنا البسيطة ، القويمة ،
كلمات تسير بضحاياكم حتى عتبة السجون .
امام شبكات السجن تحتشد الضحايا ،
وفجأة تتكسر قيودهم الدهرية ،
وتقع في الغبار ،
وتمّحي كل وصمات الاهانات ،
وعلى الجباه النقية
تتلألأ بركات غاندي !

سيظل طاغور الوطني المخلص ، وسيكتب في ذلك ويخطب ، ولكنه لن يختلط بالشعب ليشاطره شعوره وآلامه . هو الفنّان قلما استطاع ان يندمج في جماعة ، او ان يطيل المكث بين الجماهير .

• • •

وان ثم احزاناً حلت بقلب طاغور .

لقد فقد امه ، وهو ابن اثنتي عشرة ، فجزع على فقدها . ولكنه جزع عابر ، لان احزان الاحداث لا تبلغ الاعماق .

على انه بلي ، منذ الثالثة والعشرين ، بعدة بلايا ، فمات ابوه ، وزوجه ، وبكره ، وابنته ، فكانت سلسلة متصلة من الآلام ، وكان اثرها في النفس بليغا : « كل شيء حولي ظل على ما كان عليه – الاشجار والتراب ، المياه والشمس ، القمر والنجوم – انما الشخص الذي كان الصق بحياتي من كل هذا جميعاً ، فقد توارى في لحظة ، كما يتوارى الحلم ! »

⊙ ⊙ ⊙

وينهي طاغور كتاب « ذكرياته » بهذه الكلمات :

« ما زلت اتابع سفر حياتي بين منازل البشر . واني لا استطيع ان انظر الى ما القاه في الطريق من خير ومن شر ، من فرح ومن حزن ، كما انظر الى كتاب مزدان بالصور ، اقلّب صفحاته . لقد بنيت وهدمت ، انتصرت واندحرت ، حالفت وقاومت . واني لا اقوى على البوح بحذق قائدي الآلهي ، اذ يسير بي بين ما في الحياة من عقبات ، وخصومات ، وتعاريج ، دون ان يفقدني بهجة الحياة ... ولهذ اقف بقارئي عند عتبة هيكلي الداخلي ، واستودعه الله . »

وان طاغور يكتب هذا مساء نشر ديوانه « قربان الاغاني » . وانّا نقف بك معه ، عند هذه الفترة من حياته الروحية والفنية ، لانّا ما تحدثنا عن طاغور ، وما توقفنا على بعض تآليفه ، وما اوردنا له في الشعر وفي شعره اراء ، الا لنريك تربة غذت هذا الديوان ، وروحاً تدفقت في اناشيده ، وفناً بلغ فيه اوجه . وانه قد حان لنـــا ان نحدثك عن الديوان نفسه !

قربان الأغاني

لقد أريناك ما عند طاغور من خروج على التقاليد ، والسير في سبيل فنّي خاص ، وأريناك توقه العميق الى الخروج من كيانه المحدود ، للغوص في خضم الحياة الشامل .

وانك تقرأ ديوانه هذا ، فتحس نفسك في اجواء ساحرة عذراء ، لم تطأها قدم ، او يسمُ اليها بشر ، وتحس الهك شائعاً في الكون ، منغمساً فيك ، لا تعيقه حواجز ، او تحبسه سماء .

ان طاغور دفق شعري فريد ، فسيح المدى ، بعيد الغور ، يلملم هنات مبعثرة من عطر الوادي ، ونسمة الغاب ، وغيمة الربيع ، ويصقلها لوحة متماوجة غيناء ، او يلملم نزع الغروب ، وهمسات الغدير ، وحنين الشريد ، ويرسلها نغماً متهادياً ولهان .

وانه هدي شرقي سامٍ ، يؤثر الروح في عصر الالحاد ، ويؤمن بالاخاء في صخب الاثرة ، وينبذ تناحر الاوطان في ثورة القوميات . انه لمن الضلال ان يجزىء الانسان الكون ، فيقيم الحدود ، ويمكن الحواجز ، او ان يصارع الانسان اخاه ، وهما موجتان دفعهما البحر الاكبر على الشاطىء الموحش ، وستمتزجان بعد لحظة في غمره الهادىء الرحب .

هما هذا الخيال الخصب، وهذا المدى الروحي، يغدقهما عليك طاغور في «قربان الاغاني». والديوان هذا مجموعة اناشيد لا يضبطها وزن، او يربطها تأليف، وانما تجري فيها روح هيام صوفي، وصبوة تائه غريب، وامل لقاء دانٍ. اما اذا اردت تحليلاً تهتدي به في مطالعة هذه الاناشيد، فاليك بعض معالم:

الشاعر انعكاس الالوهة على صفحة الكون، لولاه لما احب الله، ولما احس الخليقة، ولما احس نفسه (٦٥، ٥٦).

والشاعر قيثارة الالوهة، فيها تنفخ النغم، ومنها تتعالى الحان مثقلة بالحب، طافحة بالحنين، توّاقة الى التلاشي في غمر الاغنيـة العظمى، اغنية الابدي.

والشاعر حبيب واجد، يرقب الطرق، وينوّع الاناشيد، يسهر الليالي ويعاني الظلام، يسهر ويغني منتظرا هبوط الحبيب في موج من النور، ودفق من الهناء (٢٧، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٧...).

والشاعر روح غارقة في جسد، مقيدة باهواء، يطغى عليها الطموح، ويستأثر بحبها الناس، وتغريها بهرجة الاشكال. وانها لفي جهاد شاق، وعناء مؤلم، الى ان تتحرر من كل شهوة، وكل شكل، وكل لون جذّاب، وتغادر هذه الحيـــاة لتغوص في قلب الحياة الشاملة، وتلقى الالوهة وجهاً لوجه، في بهجة الصباح الاسنى (٢٨ – ٣٣...).

وان الاناشيد الاخـــيرة في الديوان لوداع للحياة، وداع هادىء رهيب، فيه من غصة الفراق، وفيه من ثقة المؤمن، وفيه من عودة الغريب، ومن امل الحبيب بلقاء حبيبه. ولعل اناشيد الوداع هذه زبدة ما في الديوان.

وتجد غير ذاك اناشيد متنوعة ، منها مثلان طريفان (٥٠ ، ٧٨) ومنها اناشيد للطفولة (٦٠ ، ٦٢) ، ومنها مزيج من شعر وحكمة وامثال .

⊛⊛⊛

طالع هذا الديوان ، بل تأمل فيه ، لانه للتأمل لا للقراءة السريعة ، ولغواة الفن والروح ، لا لطلاب التسلية . طالعه ولا يوقفك ما فيه من مسحة حلولية، فانها اغراق في اللفظ ، لا عقيدة في السريرة ، وانها، ان تهدف الى شيء، فالى ان تُشعرك بصلات الهك بك، وبصلاتك بالناس، فتطهّر نفسك مثوى لربك ، وتطهر قلبك من اثرة ومن وبغض ، وتخطو بالناس ومعهم الى اخاء اصدق ، وعالم اكمل .

طالعه لأنه نتاج شرقي ، يصادف منك هوى ، ويحرك كوامن قربى .

وطالعه لأنه من اجمل كتب طاغور ، وانه لحيف جسيم الا تعرف كتاباً قيماً لطاغور !

ي. ع.

ما العالم، في مظهره الفنّي، سوى ملعب يمرح فيه المبدع الاسمى، ويتلهّى بالخلق والتلوين . . .

ان الله يتراءى في ابهى شيء — في النور، والبستان، والوجه الحسن — كما يتراءى في ابخس شيء . . .

طاغور



لوٹ الی!

١

لقد حسن في عينيك ، فجبلتَني لا نهاية لي .[1]

هذه الكأس الواهية تفرغها مرة بعد مرة ، ثم تملأها ابداً حياة طرية .

وهذا الناي الحقير جبتَ به التلال والاودية ، تهزّ احشاءه بانغام تطاول الآباد .

تلمسني يداك لمسةً خالدة ، فيطفر قلبي الصغير جذلاً من حواجزه ، ويدفق كلاماً علوياً .

عطاياك لامتناهية ، ويداي صغيرتان ، لكن اسكب فسوف تفنى الاجيال ، ويبقى في يديَّ فراغ .

٢

تأمرني بالغناء فيطفح قلبي تيهاً ، وانظر الى محيَّاك فتفيض عيناي بالدموع .

كل ما في حياتي من نبرات مبحوحة ، متنافرة ، يذوب ويأتلف في لحن واحد رخم — وتبسط صلاتي جناحيها كانها طير طروب ، شريد على وجه البحار .

---

(١) يخاطب طاغور الله ، واكثر اناشيد الكتاب حوار بين الشاعر وربه .

انا اعلم انك تطرب لغنائي ، واني لولاه ما مثلت لديك .

ان غنائي يجوز الآفاق ، وتلامس جناحاه قدميك ، قدمين ما طمحتُ يوماً الى بلوغهما .

وفي نشوة غنائي ، يأخذني الذهول ، وادعوك صديقاً ، انت يا ربي .

٣

ألا ، كيف تغنّي ، يا احذق المغنّين ؟ انا اصغي ابداً اليك في سكتة المفتون .

اشعة موسيقاك تنير الكون . نفحات موسيقاك الحيّة تسعى من سماء الى سماء . تيّار موسيقاك المقدّس يخرق الحواجز الصخرية ، ويجري مندفعاً .

ان قلبي يودّ الغناء معك ، ولكن انى له ما يروم ؟ ان صوتي يختنق ، وكلماتي لا تأتلف في لحن ، واظل شاكياً ، مخذولا . آه ! لقد سجنتَ قلبي في شباك موسيقاك اللامتناهية ، انتَ يا سيد المغنين !

٤

يا حياةَ حياتي ، ساسعى ابداً في صون جسمي نقياً ، لان ملامسك الحيّة تلامس كل عضو فيَّ .

ساسعى ابداً في صون فكري من الضلال ، لانك الحقّ الذي أشعل نورَ الفهم في عقلي .

ساسعى ابداً في دفع كل خبث عن قلبي ، وكل ذبول عن زهر حبي ، لان مثواك في قدس اقداس قلبي .

ساسعى ابداً كي تظهر في اعمالي ، لانها قوّتك حبتني قوة العمل .

٥

نعمة ارجو ! ألا اسمح لي ان ارتاح هنيهة قربك ، وسأنهي بعد ذاك ما باشرته من عمل .

حين يغيب عني محياك ، يفقد قلبي الهدوء والراحة ، ويصبح عملي عناء مديداً في بحر رحب من العناء .

اليوم اطلّ الصيف على نافذتي ، بهمسه وزفيره ، وتسارعت النحلات يغازلن زهور الروض .

هي الساعة الملائمة ! دعني اجلس هادئاً امامك ، وجهاً لوجه ! دعني اغنّي ، واقفاً لك الحياة ، في غمر هذا السكون الصامت .

٦

اقطفْ هذه الزهرةَ الواهية ، وأسرع بقطفها ، لئلا تذبل وتتناثر في الغبار .

ان لم تضفرْ منها اكليلك ، فلا تحرمها لمس يدك الاليم . الا اقطفها ! اني اخشى غروبَ نهاري ، وفواتَ وقت القرابين .

لونُ زهرتي خفيّ ، وعطرها خجول ، ومع ذاك فاقبلها بعضَ زينة ، واقطفها قبلَ فوات الاوان .

٧

عطّلت غنائي من الزينة ، وطرحت زهو اللباس والزخرف . الحلى تفسد علينا الوصال : انها تقوم فاصلاً بيننا ، وصوت جُلجلها يطغى على النجوى .

حين أراك ، اخجل من نفسي ، ويندثر تيه الشاعر فيّ . يا سيد الشعراء ،

ها قد جلست لدى قدميك . علمني فقط ان اجعل حياتي مستقيمة ، بسيطة ، استقامة ناي ، يعب من انشادك .

٨

اذا ارتدى الطفل حلة الامراء ، وزان بالسلاسل جيده ، فقد لذة اللعب ، وعاقت الزينة خطاه .

يخاف هتك النسيج ، او تلويثه بالغبار ، فيعتزل الناس ، ولا يكاد يجرؤ على الحركة .

ايتها الام ، ما سجن هذه الزينة ؟ الا تحرمينه من لقاح الغبار النافع ، الا تسلبينه حق الاشتراك في موسم حياتنا الشامل ؟

٩

ايها الاحمق ، الذي يحاول حمل ذاته على كتفيه ، والمتسول يستعطي على باب داره !

ألا ألق اثقالك بين يدي القدير ، ولا تأسفن ابداً على ما فات .

يخبو نور المصباح ، ان مسه لهاث شهوتك . انها شهوة دنسة ، فانبذ ما تقدم لك من ارجاس ، ايثاراً لهبات الحب المقدس .

١٠

هنا مقعدك ، وهنا ترتاح قدماك ، قرب الفقير ، والحقير ، والشريد .

مهما انحنيت امامك واتضعت ، ظللت دون بلوغ الهوة ، حيث ترتاح

قدماك قربَ الفقير ، والحقير ، والشريد .

ان الكبرياء تنفر عنك ، اذ تراك في ثياب الهوان ، تماشي الفقير ، والحقير ، والشريد .

وان قلبي لن يسلك السبيل اليك ، ما دمتَ بين النفايات ، جليس الفقير ، والحقير ، والشريد .

١١

اعدلْ عن الترتيل والغناء ، واطرح سبحتك ! من تراكِ تكرم في هذه الزاوية المعتمة من هذا الهيكلِ المقفل الخالي ؟ ألا افتحْ عينيك ترَ الهك غائباً ! [1]

ان الهك َلحيث يشقّ الحارثُ تربتَه الصلبة ، وتحطِمُ الصخورَ ايدي البنائين . انه هناكَ رهن الشمس والامطار ، يكسو الغبارُ ثوبه ، فاخلعْ ثيابَ التقى ، وانزلْ مثله بين الغبار !

النجاة ؟ اين ترجو النجاة ؟ لقد تقيّدَ ربّنا مسروراً بقيودِ الخلق ، قد تقيّد بنا الى الابد .

اخرجْ من تأملاتك ، واترك جانبا الزهر والبخور ! ما همَّ ان تمزقَ ثوبك او تلوّث ؟ الا اذهب اليه وشاطره العناء وعرقَ الجبين .

---

(١) ان طاغور لا ينبذ الصلاة ، فان له في هذا الكتاب صلوات . ولكنه ينبذ تلك التمتمات الفارغة التي لا تصدر عن قلب او تقترن بعمل .

١٢

ايامُ سفري طويلة ، وطريقي طويل

خرجتُ في موكبِ الشعاع الاول ، وجبتُ العوالمَ الخالية ، تاركاً أثري على آلافِ النجوم والكواكب .

ابعدُ الطرق اقربُها اليك ، وألوى العزف اقومُه الى بساطةِ الايقاع .

على المسافر ان يقرعَ كل باب قبل الوقوف على بابه ، ويتيهَ عرضَ العوالم الخارجية قبل الاهتداء الى قدس اقداسه .

كم جابتْ عيناي من افق ، قبل ان اطبقهما واقول : انتَ هنا !

لم سألتُ وصرخت : «آه ، اين ؟» وان سؤالي وصراخي ذابا في دموعِ آلاف الانهار ، وغمرا الكون بموجةِ هذه الحقيقة الراهنة ، حقيقةِ وجودي .

١٣

ما جئتُ لأغنيَه ، لمَّا اغنِه .

لقد انفقت ايامي اشدّ اوتاري وارخيها .

اعجزَني النغمُ السويّ ، وتنافرتِ الالفاظ ، وكل ما بقي في القلب امنيةٌ تحتضر .

الزهرةُ برعمٌ بعد ، انما الريحُ قربَها يتأوه .

لم ارَ وجهه ، او اصغِ الى صوته ، انما سمعت وقع خطاه الخفيف على طريق بيتي .

مضى نهارُ حياتي الطويل ، وانا انصب له عرشاً في داري . انما المصباح لم يُشعَلْ ، فكيف ادعوه الى الدخول ؟

انا احيا على املِ لقياه ، وحتى الساعة لم يتمَّ لقاء .

١٤

مناي كثيرة ، وشكواي تفتّتُ الاكباد ، ولكنك تنجيني ابداً بالحرمان الاليم ، تلك النعمةِ القاسية التي تلج بها حياتي من قطبٍ الى قطب .

يوماً بعد يوم تُعدُّني لهبات لم ارجُها ، لهباتِك العظيمة ، البسيطة — السماء والنور ، الجسدِ والحياةِ والروح — وتقيني اخطارَ المنية المطماع .

تارة اتعبُ فاتماهل ، وطورا انهض مسرعاً نحو هدفي . ولكنك اذ ذاك تحتجبُ بقساوة عني .

يوماً بعد يوم ، تعدّني لقبولك الكامل : تثابر على الحرمان وتثابر ، فتقيني اخطار المنيةِ الواهنة ، المنيةِ الحيرى .

١٥

انا هنا لأُسمعك اغانيّ ، وفي زاويةِ قاعتك هذه لي مقعدٌ خاص .

انا بطّالٌ في عالمك هذا ، وباطلةٌ حياتي ، فلأنثرْها امامك نغماً دون هدف .

عندما تحينُ الساعة — ساعةُ عبادتِك الصامتة ، في هيكل الليل البهيم — مرْني ، يا رب ، فانتصب اماَمك مغنياً .

عندما يهبُّ نسيم الصباح ، ويعزف العودُ الذهبي ، اولِني هذا الشرف ، ومرْني بالمثول لديك .

١٦

دُعيتُ الى عيد هذا العالم ، وهكذا تباركتْ حياتي . عيناي ابصرتا ، وسمعت اذناي .

كان نصيبي في هذا العيد الضربَ على معزفي ، وقد عزفتُ ما استطعت .

فهلّا حان لي ان اعبر الباب ، لأرى محياك ، واهدي لك تحيتي الصامتة ؟

١٧

الحبَّ وحده انتظر لاستسلمَ لذراعيه . لهذا فات الوقت ، وكثر مني الاهمال .

من شرائعهم وقوانينهم حاكوا لي قيوداً ، ولكنني أفلتُ منهم ابداً ، لاني لا انتظر سوى الحب لاستسلم لذراعيه .

لاموني وعابوا اهمالي ، ولا ريبَ انهم في لومهم مصيبون .

أقفلوا الاسواق ، وفرغوا من قضاء الحاجات ، والذين بحثوا عني عادوا خائبينَ حانقين . الحبَّ وحده انتظر لاستسلمَ لذراعيه .

١٨

الغيومُ تتلبّد فوق الغيوم ، والظلامُ بهيم . ألا كيف تتركني ، ايها الحبّ ، انتظر وحيداً على بابك ؟

في جلبة الظهيرة ، اختلطُ بالجمع الساعي ، اما في هذا النهار الموحش القاتم فلا ارجو سواك .

ان تحجبْ عني محياك ، وتهملني جانباً ، فكيف اقضي هذه الساعات الطوال ، الساعاتِ الماطرات ؟

الى ارجاء السماء القاتمة تحدق عيناي ، وقلبي الشاكي جوّابٌ مع ريح تجوب .

١٩

ان صمتَّ قاسيتُ منك الصمت ، املأ به قلبي . واني لأمكث هادئاً ، وانتظر صابراً ، خافض الجبين ، كأني الليلةُ الساهرة القمراء .

سيلوح الصبح ، ويتبدد الظلام ، وينهلُ صوتك غمراتٍ ذهبية ، متدفقة عرض السماء .

حينئذٍ تتعالى كلماتك غناء مجنحاً ينبعث من اعشاش طيوري ، وتتفتق انغامك زهوراً في غياض غابي .

٢٠

يوم تفتحت زهرة الحندقوق ، كان عقلي ذاهلاً ، فلم ادرِ بها . كانت سلّتي فارغة ، وزهرتي اهملتُها !

انما كان حزنٌ صاعق يعاودني ، فاستفيق من حلمي مذعوراً ، وتهبُّ ريحُ الجنوب ، فانشق فيها بقيةً عذبة من اريج غريب .

وكانت هذه العذوبةُ الخفية تثير في قلبي المُنى المضنية ، وكنت اخالها لهاثَ الصيف الاجوج يجدّ نحو النهاية .

ما كنت ادري بعد ان هذه العذوبة الفائقة قريبةٌ مني ، كامنةٌ فيَّ ، ما كنتُ ادري انها أزهرت في اعماق فؤادي .

٢١

وَيحٌ لي ! عليَّ ان امخر بسفينتي العباب ، وها الساعات الطوال تنقضي ، وانا على الشاطىء !

الربيع اعطى زهوره ، وولّى مودعاً ، وانا ما زلتُ منتظراً ، متماهلاً ، احمل زهراً تافهاً ذاوياً .

الموج يتدفق صاخباً ، والاوراق الصفراء ترتعش ما وراء الضفة ، وتنتثر على الطريق الظليل .

ايّ فراغ تتأمل ؟ الا تحس قشعريرةً تسري في الهواء ، ونغماتِ لحنٍ بعيد تطفو على الشاطىء الاخر ؟ [1]

---

(١) هو شاطىء العالم الثاني .

٢٢

تحتَ امطار تموز ، وفي ظلاله القاتمة ، تسير سيراً خفياً ، صامتاً كالليل ، متحايداً كلَّ حارس .

صباحُ هذا النهار اغمضَ عينيه ، غير مكترث بالنداء الملحاح ، نداء الصَّبا العاصف ، وغشاء كثيف حجب زرقة السماء ، الزرقةَ التي لا تنام .

الغياضُ كفّت عن الغناء ، وقُفلت ابواب المنازل . في هذا الشارع الموحش ، ليس من مسافر سواك . الا يا صديقي الوحيد ، يا خَير حبيب ، ان بابي مفتوحٌ على مصراعيه ، فلا تمرَّ كالحلم .

٢٣

الليلُ عاصف ، وفي السماء زفرات اليائسين ، فاين انتَ صديقي ؟ هل انت وسط العاصفة تتابع سفَر غرامك ؟

لا اشعر الليلةَ بنعاس ، وكلَّ هنيهةٍ افتح بابي ، وابحث عنكَ ، صديقي ، بين طياتِ الظلام .

ولكني لا اتبيَّن شيئاً ، واتساءل اي طريق تسلك !

فعلى اية ضفةٍ قاتمة من الانهار السوداء ، على ايّ تخومٍ قصية من الغاب المتجهم ، وخلالَ اي طياتٍ من اعماق الظلام ، تخطَ طريقك ، يا صديقي ، الي ؟

٢٤

اذا ما ولّى النهار ، وصمت الطيرُ الشادي ، وسكن الريحُ التعبان ، فاحضنّي بالظلام الكثيف ، كما تحضن الارضَ بالرقاد ، وتطبق زهرةَ الخندقوق اشفاقاً من الغسق .

اذا ما فرغ زادُ المسافر في الطريق ، وتمزّقت ثيابُه المثقلة بالغبار ، وخارت منه القوى ، فاحفظه من العارِ والفاقة ، وجدّدْ فيه الحياة ، كما تجدّدها في الزهرة تحت نقابِ ليلك الرؤوف .

٢٥

في ليالي التعب ، دعني استسلم للنعاس ، واضعاً فيك ثقتي .

انه لجهدٌ باطل ، جهدُ عقلي المنهوك في إعدادِ عبادة لك ، انتَ يا من ترخي سدولَ الليل على عينَي النهارِ التعبان ، لتجدد فيهما ، عند اليقظة ، نظراً اهنأ وازهى .

٢٦

اتى وجلس بجانبي ، وانا لم استيقظ . كم كان نومي مشؤوماً ، انا التعيس !

اتى في هدأةِ الليل ، حاملاً قيثارته ، فردّدتْ احلامي صدى انغامه .

اه ! لماذا تضيع هكذا كلُّ لياليَّ ؟ لماذا تُحرم عيناي ابداً ممن يلامس نومي بانفاسه ؟

٢٧

النور ، اينَ النور ؟ ألا اشعله بلهبِ الشوق المضطرم ! [1]

هوذا المصباح ، انما لا شعاعَ يخفق فيه . أهذا مصيرك يا قلبي ؟ الا ان موتك خيرٌ لك وافضل !

الشقاء يقرع بابك . هو رسول ربٍ ساهر ، يدعوك الى موعدِ الحب ، في ظلام الليل .

---

(١) قال ابن الفارض ، والضمير ، في توحشها ، يعود الى الديار :

وان اجنّـك ليـل في توحشها   فاشعل من الشوق في ظلمائها قبسا !

السماء متلبدة بالغيوم ، والمطر سيلٌ متصل · في داخلي اضطراب ، اجهل مصدرَه ، واجهل مغزاه ·

يومض البرقُ فجأة ، فيلقي وميضُه على نظري ظلمةً اعمق ، ويسري قلبي متخبطاً الى حيث تدعوني موسيقى الليل ·

النور ، اين النور ؟ الا اشعله بلهب الشوق المضطرم ! الرعدُ يقصف ، والريحُ يعصفُ شارداً في الفضاء · الليل اسود كأنه الحجرُ الاسود · لا تدعنَ الساعات تنقضي في الظلام · ألا اشعلْ حياتك نوراً في مصباح الحب ·

٢٨

ثقيلةٌ هي قيودي ، ولكنَّ قلبي يتألم اذ احاول كسرَها ·

الحرية كلُّ مناي ، ومع ذاك اشعر بخجل حينَ اصبو اليها ·

انك لأغنى كائن ، واعزُّ صديق ، ومع ذاك لا يطاوعني القلب على تكنيسِ زخارفَ تملأُ غرفتي ·

لحافي غطاءٌ نسجه الموتُ والغبار ، وعلى بغضي له اضمه بهيام ·

ديوني كثيرة ، وافلاسي كبير ، وعاري ثقيلٌ مستور ، ومع ذاك ارتجف اذ اطالب بما لي ، مخافةَ ان اناله ·

٢٩

ان اسمي لسجنٌ ، واني اسيره الباكي · انا ابداً اعنى ببناء جدرانه ، وبينما هي تعلو مع الايام وترتفعُ في الفضاء ، يمتدّ ظلها الكثيف على كياني الحقيقي ، فيغيب عن نظري ·

انا فخور بهذه الجدران الضخمة ، ان لحظتُ فيها منفذاً ضئيلا سددته بالرمل والتراب . ولكثرة ما غاليت في العناية باسمي، غاب عن نظري كياني الحقيقي .

٣٠

خرجتُ وحدي الى هذا الموعد ، ولكن من ذا يتأثرُ خطاي في هذه الظلمة الصامتة ؟

اتنحّى لاتحايده ، انما لا ملاص منه .

يمشي متغطرساً فتثير مشيتُه الغبار ، وصوتُه الصاخب يردد ما اقول .

إنْ هذا الا شخصي الحقير ، يا رب ! انه يجهل الحياء ، وانا اخجل من الوقوف بصحبته على بابك .

٣١

ايها الاسير ، قلْ لي ، من ذا الذي كبّلك ؟

واجاب الاسير : « هو سيدي ، حلمتُ بان افوق كلَّ بشر غنىً وسلطاناً ، فلم اؤدِ ما لمليكي من فضة ، بل جمعتها في خزائني . واستولى علي النعاس ، فانطرحت على سرير سيدي ، وعند اليقظة وجدتُني اسير خزائني . »

ايها الاسير ، قل لي من صنع لك سلاسل الفولاذ هذه ؟

واجاب الاسير : « انا صنعتها بيدي ، واتقنت صنعها . خلتُني قادراً بقوتي القهّارة ، على ان احبس الكون في سجن ، فابقى حراً مطمئناً . ورحت ليلًا ونهاراً احمي الحديد في سعير النار ، وادقه بمطرقتي دقًا . وعندما انهيت عملي، واكملتُ آخر حلقة من سلاسل الفولاذ ، وجدتُني اسير قبضتها » .

٣٢

بشتى الوسائل، يحاول احبائي في هذا العالم ان ينفردوا بحبي . اما حبك فغيرُ حبهم واكبر ، ولهذا تتركني حراً .

يخافون ان انساهم ، فلا يتركونني ابداً وحدي . وتمرّ الايام اثر الايام ، وانت محتجبٌ عني .

قد لا ادعوك في صلاتي، وقد لا تكون في قلبي، ومع ذاك يظل حبك منتظراً حبي .

٣٣

في النهار اتوا منزلي قائلين : « سنشغل هنا اصغر غرفة » .

قالوا : « سوف نشاركك في عبادة الهك ، ونقبل قانعين ما يصيبنا من نِعم » . ثم جلسوا في زاويةٍ هادئينَ ، وديعين .

اما في ظلمةِ الليل ، فاقتحموا هيكلي المقدس ، عُنفاً هائجين ، وطغا جشع اثيم ، فعرّوا مذبح الهي من القرابين .

٣٤

أبقِ مني على هذا الشيء اليسير ، الذي به ادعوك كلًا لي .

ابقِ من ارادتي على هـذا الشيء اليسير ، الذي به احسُّك في كل مكان ، واقصدك في كل كائن ، واهدي لك حبي كلَّ ثانية .

ابقِ مني على هذا الشيء اليسير ، الذي يحول ابداً دون اخفائك .

ابقِ على هذا الرباط الضئيل ، الذي يصلني بارادتك ، ويصلُ ارادتك بحياتي – أبقِ على رباطِ حبك .

٣٥

ان روحاً آمنة ، ورأساً عالياً ، وفكراً طليقاً ،
وان عالماً لم يندثر عشائرَ ، وتقم بين اهله جُدرٌ ضيقة ،
وان كلاماً ينم عن صافي السريرة ، وسواعد جَلدة تكدّ نحو الكمال ،
وان عقلا ما فقدَ صفاءه ، او ضلَّ في قفر عبوس ، في بالي التقاليد ،
وان روحاً تقودها في رحابِ الفكر والعمل ،
– ان ذاك ، ابتِ ، لنعيمُ الحرية ، ففيه ايقظنْ وطني .

٣٦

هذي صلاتي اليك يا رب :
انزعْ هذا الشحَّ من قلبي ، انزْعه من اصوله .
قوّني لاصبرَ بنشاط على الاحزانِ والافراح .
قوّني لاجعلَ حبي خصباً بالتفاني .
قوّني كي لا امتهنَ فقيرا ، او اجثو امام القوة العاتية .
قوّني لاعلو بروحي فوق التوافه اليومية .
قوّني لاضع قوتي بهيام رهنَ مشيئتك .

٣٧

عندما انفقتُ اقصى قواي ، خلتُ سفري انتهى ، وخلتُني في آخر الطريق .
خلت زادي فرغ ، وحان ان آوي الى الظلمة الصامتة .
ولكنك لا ترضى لي عن حدود . فعندما تموت الكلمات البالية على

شفتيّ ، تتدفق انغامٌ جديدة في قلبي . وعندما اضلُّ السبلَ المطروقة، تطلُّ امامي غرائبُ بقاعٍ ساحرة .

٣٨

ايّاكَ اريد ، واياك وحدك - ردّدْ ذاكَ يا قلبي ، ردده دون ملل .
كل مناي الاخرى ، الهوّةُ ليلي ونهاري ، لمنى كاذبة ، فارغة حتى اللباب .
في ظلمةِ الليل صرخةٌ كامنة الى النور ، وفي اعماقي اللاواعيـة دويُّ صوتٍ صارخ : اياك اريد ، واياك وحدك .
في قلب العاصفة ، الثائرة على الهدوء ، نزوعٌ الى الاندثار فيه ، وفي طغيان تمردي على حبك حنينٌ هاتف : اياك اريد ، واياك وحدك .

٣٩

اذا تصلّبَ قلبي وجفَّ ، اهبطْ علي في وابلٍ من الحنان .
واذا ذوى جمال الحياة ، تعالَ اليَّ في عصف من الاناشيد .
واذا علتْ من كل صوب ضوضاء الكدّ الصاخب ، وغاب عني العالمُ الاخر ، تعال الي ، يا إله الصمت ، بالهدوء والراحة .
واذا ارتمى قلبي البائس منزوياً ، ذليلا ، اكسرِ البابَ ، يا ملكي ، وادخلْ في ابهة الملوك .
واذا اعمتِ الشهوةُ عقلي بالوهم والغبار ، هلمَّ ايها الساهر ، مَن لا قدوسَ سواه ، هلمَّ الي بالبرقِ والرعود .

٤٠

اللهمَّ، الايامُ تلي الايام، والمطر محبوسٌ عن قلبي القاحل.

في الافق عريٌ قاسٍ، لا غيمةَ نديّة تحجب حواشيه، ولا شبهَ اشارةٍ الى بعيد غيثٍ منعش.

الا ارسل، ان شئتَ، عواصفَ هوجاء، مثقَّلة بالموت والظلام، واصفعِ السماء ببروقٍ تهزها من قطب الى قطب.

ولكن استرجعْ، يا رب، استرجع هذا الحرَّ الصامتَ المضطرم، الحرَّ اللافحَ القاسي، الذي يتململ الى قلبي لهيباً، ويأساً مريعا.

وأهبطْ علينا من العلاء غيوماً رؤوفة، كانها عينُ الام، الطافحة بالدموع، ساعة الغضب الابوي.

٤١

في ايّة ظلمةٍ تختبىء، حبيبي، واين تقف وراء الجميع؟ على الطريق الغفراء يصدمك المارة، ولا يبالون. وتقادمي التي عانيتُ الساعات ازينُ بها طريقك، خطفوها زهرةً زهرة، وكادت سلّتي تفرغ.

ها قد ولّى الصباح، وولّى الظهر، وبدأ ظلُّ المساء يثقِل عينيَّ بالنعاس. العائدون الى بيوتهم يحدقون الى وجهي، وابتسامتهم تثير فيَّ الحياء. كالفتاةِ المتسولة جلست، ووجهي حجبتُه بطرف ثوبي. ان يسألوني عمَّ اريد، اخفض نظري ولا اجيب.

أوَأجيبهم أني في انتظارك، وانك وعدتَني بالمجيء؟ هل ابوح لهم دون خجل باني اخترتُ هذا الفقر مَهراً لي؟ اه! ان في هذا كلَّ فخري، واني لاكتمه في حبّة القلب.

جلستُ على العشب الاخضر اتأمل السماء . اني احلم بوصولك فجأةً ، بين شعشعة النور ، وعلى مركبةٍ ترفّ فوقها اعلامٌ ذهبية . واني اراك نازلا عن عرشك ، بين دهشة الواقفين على حافة الطريق ، لتلمّني من بين التراب ، وارِاني جالسة ازاءك فتاةً فقيرة ، تكتسي ثوباً رثّاً ، وترتجف حياء وعجباً ، كانها نبتةٌ متدلية في مهب نسيم الصيف .

ولكن ها الوقت يمضي ، ولا صوت لدواليب مركبتك . ان مهرجاناً عظيماً يزحف في لألاء من المجد ، صاخباً، هاتفاً : اتبقى وحدك في الظلمة الصامتة مختبئاً وراء الجميع ؟ أوَأنتظرك وحدي باكية ، اضني القلب بالشوق الباطل ؟

٤٢

مع اشعة الفجر همسةٌ تسعى : اني سأبحر واياك ، سنبحر وحيدَين ، في سياحة لن يدري بها بشر ، ولن يكونَ لها نهايةٌ او هدف .

عرضَ يمٍّ لا تحدّه شواطىء ، وعلى مسمعِ بسمتِك الصامتة ، قد تتدفق انغامي طليقةً كالامواج ، حرةً من قيود اللفظ .

ألم يحن الوقتُ بعد ؟ وهل من عملٍ يعيقنا هنا ؟ على الشاطىء هبطَ المساء ، وعلى لهاثِ النور المحتضر يأوي طيرُ البحار الى وكره .

تُرى متى نُقلع ، وتغور سفينتنا في قلب الليل ، كأنها اخرُ خفقةٍ من شعاع الغروب ؟

٤٣

لم اكن مستعداً لاستقبالك ، يوم دخلتَ قلبي . دخلتَ كعامة الناس ، يا ملِكي ، دون ان ادعوك او اعرفك ، وطبعتَ بطابع الابدية هنيهاتٍ عديدة من حياتي الهاربة .

واليوم ، اذ أعثر صدفةً على تلك الهنيهات ، المطبوعة بختمك ، اراها مطروحةً في الغبار ، مبعثرة بين عاديّ ايامي المنسية ، بين افراحٍ واحزان .

لم تهزأ بي يومَ كنتُ طفلا العب بالتراب . وان خطىً دوتْ بها قاعة ألعابي ، يومَذاك ، لَبِها تدوي السماء من نجم الى نجم .

٤٤

لذتي في ان اراقب المارّة ، منتظراً على حافة الطريق ، حيث الظلامُ يطارد النور ، والمطرُ يتأثّر الصيف .

ان رسلاً يمرون امامي حاملين اخبارَ سماواتٍ مجهولة ، ويحيّونني مسرعين .

قلبي خافقٌ طروب ، وعذبٌ لهاثُ النسيم العابر .

من الفجر الى الغسق ، انتظرُ امام بابي . واني على يقين من دنوّ الساعة السعيدة ، ساعة مرآه .

وبينا انتظر ، ابسمُ وحدي واغني . وان الهواء لعابقٌ بعَرفِ الوعد .

٤٥

الم تسمعْ وقعَ اقدامه الصامتة ؟ انه آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ابداً .

في كل ثانية وزمان ، في كل نهار وليل ، هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ابداً .

كم غنيتُ من نشيد — من كل اصداء الروح — و كلُّ اغانيَّ نغمةٌ واحدة : هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ابداً .

في شمسِ نيسان العابقِ بالعطور ، وعلى مسالك الغاب الضيقة ، هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ابداً .

في ليالي تموز العاصفة السوداء، وعلى قاصف مركبة الغيوم، هو آتٍ، آتٍ، آتٍ ابداً.

هي خطاه تضغط على قلبي، فاحسّ غماً على غم، وهما قدماه تلمسانني لمستها الذهبية، فازهو فرحاً.

٤٦

تُرى، كم سرتَ من احقاب تسعى الى لقياي؟ ان شمسك ونجومك لن تحجبك عنّي الى الابد.

كم مرةٍ دوى وقعُ خطاك، كم من صباح ومساء. وولج رسولُك قلبي يدعوني سراً اليك.

لستُ ادري ايَّ نشوةٍ تهزّ حياتي اليوم، ولا ايَّ رعشةِ فرح تهزّ فؤادي.

تُرى هل حان وقتُ راحتي من العمل؟ اني احسّ في الهواء عطراً خافتاً، عطرَ دنوّك العذب.

٤٧

كاد الليل ينقضي، وانا في انتظارٍ باطل. واني لاخشى ان يقف صباحاً على بابي، وقد استسلمت للنعاس منهوك القوى. الا اوسعوا في وجهه الطريق، اصدقائي، واياكم ان تصدوه.

ان لم يوقظني وقعُ خطاه، فدعوني بحقكم نائماً. لا احب اليقظة على صداح الطيور، او على جلبة الريح في هزج الصباح البهيّ! الا دعوني أنام

نومي الهادىء ، ولو وقف ربي فجأة على بابي !

ايها النوم ، نومي الغالي ، انتَ تنتظر لمسه لتتوارى . وعيناي الهاجعتان لن تتفتح اهدابُهما الا على نور بسمته ، ساعة ينتصب امامي ، كحلم صاعد من ظلمات النوم .

تتفتح عيناي عليه كأنه اولُ شُعاع ، واولُ شكل ،
وتُفيق نفسي على لحظه مرتعشة رعشةَ الفرح الاولى ،
واعود الى نفسي لاعود حالا اليه .

٤٨

الصباح بحر ساكن يجعّده غناء الطير المتموّج ، والزهر دفقُ حبور يرفّ على حافة الطريق ، والاشعة الذهبية تتناثر من خلال الغيوم ، اما نحن فمشغولون نتابع سيرنا غافلين .

لسنا ننشد اغاني الطرب او نلعب ، ولسنا نذهب الى القرية لنتعاطى التجارة . لسنا نتحادث او نبتسم ، ولسنا نتوقف في الطريق . انا نسرع في السير ، ونسرع ، مخافة ان يفوت الاوان .

ها الشمس في كبد السماء . اليمامة تهدر في الظل ، والاوراق اليابسة تدور راقصة في هواء الهجير ، والراعي الصبيّ يغطّ حالمًا في فيء التين ، وانا قد ارتميتُ على ضفة المياه ، باسطًا على الاعشاب اعضائي المنهوكة .

رفاقي ضحكوا مني هازئين ، ثم شمخوا برؤوسهم واسرعوا . ساروا لا ينظرون الى الوراء ، او يأخذون للنفس راحة ، حتى اختفوا في زرقةِ الافق البعيد . وكانوا يعدون في المروج وفوق التلال ، ويجتازون بقاعـاً غريبة سحيقة . المجد لكِ وحـدكِ ، يا كتيبة الابطال ، ابطال الدرب القصي .

استفزّني الهزء واللوم فانتفضتُ اريد النهوض، ولكن لم اجد جواباً. واستسلمت لراحة خزي عميق، في ظل هناء شاحب.

في ظلال ندية، موشاة باشعة الشمس، استسلمَ قلبي لراحة كسلى. نسيت كدّي، واذعن عقلي تائهاً بين طيات الظلال والانغام.

انما عندما فتحتُ عينيّ، وأفقت من سباتي، رايتك منتصباً امامي، تظلل بابتسامة رقادي. كم كنتُ اشفقت من وعورة الطريق وطولها، ومن اجهاد النفس للوصول اليك!

٤٩

من اعلى عرشك هبطتَ، وعلى باب كوخي وقفت.

كنتُ في زاوية اغنّي وحدي، فبلغ غنائي اذنيك، وهبطتَ الي، ووقفت على باب كوخي.

كثيرون الحاذقون في قصرك، ومتواصلةٌ اغانيهم، انما استهوتك بساطة نشيدي، انا البادىء المتمرّن. هي نغمةٌ ضعيفةٌ، شاكية، اختلطت بموسيقى الكون الكبرى، واذا بك تهبط اليّ، وتقف على باب كوخي، واذا بك تحمل زهرة في يديك جائزةً لي.

٥٠

كنتُ اسير على طريق القرية، متسولاً من باب الى باب، عندما ظهرتْ من بعيد عربتك الذهبية، كأنها الحلم الفتان، فتساءلتُ مدهوشاً من هذا ملك الملوك!

قويتْ آمالي ، وخلتُ ايام بؤسي انتهت ، فوقفت انتظر صدقاتٍ تُعطى عفوا ، وخيراتٍ تُنثر في كل جانب على الدروب .

وقفتْ عربتُك امامي ، وعليّ وقع لحظُك ، ثم ترجلتَ مبتسماً . وخلتُ ايامَ تعسي انتهت ، وان الحظّ قد لامس حياتي ، واذا انتَ تمد يمناك بغتة وتقول : ماذا تعطيني ؟

آه ، انه لعبث ملك ان تمدّ يدك الى متسول تستعطيه ! اخذني الحياء ، واستولت على الحيرة ، ثم اخرجتُ ببطء من جرابي اصغر حبات قمحي ، ووضعتُها في يدك .

كم كانت دهشتي عظيمة ، اخرَ النهار ، عندما افرغت جرابي في صحن الدار ، فوجدت حبةَ ذهبٍ صغيرة بين كومة حباتي الحقيرات . حينئذٍ بكيتُ بكاء مراً ، ووددّ القلب لو اعطاك كل ما لي .

٥١

دجا الليل ، وشغلُ يومنا انتهى . وكنا نظن ان اخر ضيوفِ الليلة دخل القرية ، وان الابواب كلها اغلقت . وقال قائل : ربما اتى الملك . فضحكنا قائلين : لا ، ان هذا محال !

خُيّل لنا ان الباب يقرع ، فقلنا انه الريح ، واطفأنا المصابيح ، واضجعنا لننام . وقال قائل : هو الرسول يطرق . فضحكنا قائلين : لا ، انه الريح !

علتْ ضجةٌ في جوف الليل ، وفي نومنا ظنناها الرعد البعيد . اهتزت الارض ، ومادت الجدران ، واضطربنا في نومنا . وقال قائل : هو صوت الدواليب . اما نحن فتمتمنا في سباتنا قائلين : لا ، هذا دويّ الغيوم !

وكان الليل لا يزال مخيماً ، عندما دقتِ الطبول ، وعلا صوتٌ هاتفاً :

استيقظوا ، ولا تتأخروا ! امسكنا قلوبنا بايدينا ، واضطربنا خوفا . وقال قائل : انظروا ، ها راية الملك ! فانتصبنا على اقدامنا صارخين : لم يبقَ لنا وقت نضيعه !

جاء الملك . ولكن اين الانوار ، أين الاكاليل ؟ اين العرش نجلسُه عليه ؟ يا للعار ، يا للعار الاكبر ! اين القاعة ، اين الزينة ؟ قال قائل : ما نفع الشكوى ؟ حيّوه بايديكم الفارغة ، واستقبلوه في غرفكم العارية !

افتحوا الابواب وقرقعوا بالاصداف . في اعماق الليل ، زار الملكُ منزلنا المظلم الموحش . الرعد يقصف في السماء ، والظلام يرتعش مع البروق . هاتوا الحصير الممزق ، ومدّوه في فناء الدار . لقد اتى ملكنا فجأةً ، على اجنحة العاصفة ، وفي الليل الرهيب .

٥٢

أعجبني اكليل الورد في جيدكَ ، ولكن لم اجسر على طلبه . لذلك انتظرت الصباح ، ورحيلكَ عنا ، عساني اجد اثراً منه على سريرك . وكالمتسولة كنت ابحث سحراً ، علّني اعثر على ورقة ضائعة ، او ورقتين .

ولكن ماذا وجدت ؟ وايّ اثرٍ تركه حبك ؟ لم تترك زهراً ، او عطراً او طيوباً ، بل تركت سيفاً صلباً ، لامعاً كاللهيب ، ثقيلا كالصاعقة . الصباح يطلّ من النافذة ، وينير سريرك بالضياء الاول ، والطير يغرّد سحرا ويسألني : يا امرأة ، ماذا وجدتِ ؟ لا ، لم اجد زهراً ، او عطراً ، او طيوباً ، بل وجدت سيفكَ الرهيب .

ما ادهش هبتك ، وما اغربها ! من لي بمكان اختبئ فيه ! بي خجلةٌ من تقلد سيفك ، انا النحيلة ، ويجرحني ان ضممته الى صدري . ومع ذلك فهبتك شرف لي ، وسيعاني القلب عناء حملها .

منذ اليوم لن يخيفني شيء في هذا العالم ، وفي خصوماتي سانتصر بك . وهبتني الموتَ رفيقاً ، فسوف اكلله بحياتي . بسيفك افري قيودى ، ولن اخاف في هذا العالم شيئاً .

منذ اليوم ساطرح كل زينة باطلة . يا ملك قلبي ، لن اعرف بعدُ الانتظار ، ولا البكاء في الزوايا ، لن اعرف الحياءَ ولا ملاطفة الناس . زنتَني بسيفك ، فما لي بعد ولزينة الالعاب !

٥٣

فتّانٌ سواركَ المزدانُ بالنجوم ، المنقوش بربوات الجواهر الملوّنة . ولكن سيفكَ افتنُ منه ، سيفك المعقوف اللامع ، كأنه طيرُ الالهِ (ڤيشنو)[١] ، وقد بسط جناحيه مستوياً فوق لهيب الغروب المحتدم .

لسيفك ارتعاش ، كأنه اخرُ نبضاتِ الحياة — في ذهول الالم — لدى اخر صدماتِ الموت ، وفيه لألاء كانه لهيبُ الوجود الصافي يلتهم بسعيره احساسنا الدنيوي .

فتان سوارك المنقوش بجواهر النجوم . اما سيفك ، يا سيدَ الرعد ، فقد صيغ من جمال باهر ، يُشفق الفكر والنظر من التطلع فيه .

٥٤

لم اسألكَ شيئاً ، او يزعج اسمي اذنيك ، وعندما فارقتَني ظللتُ صامتة . كنتُ وحيدةً قرب العين ، في ظل الشجرة المائلة ، بينا النساء يعدن الى بيوتهن بالجرار الملأى ، الجرار الترابية السمراء . وكن يدعونني هاتفات :

(١) ڤيشنو هو الاله برهما ، من حيث هو حافظ للاشياء .

تعالي معنا ، فالصبح قد مضى ، ودنا حر الهواجر . وكنت اتماهل متثاقلة ، تائهة بين شتّى الاحلام .

اتيتَ ، وما سمعتُ خطاك . بعينين كئيبتين نظرتَ الي ، وبصوتٍ تعبان همستَ قائلًا : اه ! انا سائح عطشان ! نفضتُ احلامي ، وسكبتُ من جرتي ماء في راحتيك . وحبتْ فوقنا رعشةٌ بين اوراقِ الغصون ، وشدا الكوكو في الظلّ ، وفاح عطرُ الطلح من منعطف الطريق .

سألتَني عن اسمي ، فبتُّ خرساء ، خجلى . ألا ماذا عملتُ لتتذكرني ؟ على اني عندما افكر باني رويت بمائي ظمأك ، تغمر العذوبة قلبي . الصبح مضى ، والطير يردد ابداً لحنه المملّ ، واوراق السنديان توسوس فوقي ، واظل جامدة اتأمل ، واتأمل .

٥٥

لا يزال قلبكَ في خمول ، وعيناك في نعاس .

اما سمعتَ بان الزهرة تملك بهيةً بين الاشواك ؟ استيقظ ! استيقظ ! ولا تُضعِ الفرصةَ السانحة .

عند نهايةِ المسلكِ الوعر ، وفي بلاد الوحدة العذراء ، ينتظر صديقك وحيداً ، فلا تخيّب انتظاره ! استيقظ ! استيقظ !

واذا خفق الجوّ وماج في حر الهواجر ، واذا خيّم الظمأ فوق الرمال المحرقة ، افلا تشعر بالسرور في اعماق القلب ؟ أليس للطريق ناي ، يتدفق منه نغمُ غناء عذب ، لدى كلّ خطوةٍ من خطاك ؟

٥٦

بي وجدتَ غبطتكَ الكاملة ، ونحوي هبطت . ألا ، ما كان حبُّك ، يا سيدَ السماوات كلها ، لو لم اكن في الوجود ؟

اشركتني في غناك . في قلبي تنغم بعزفٍ دائم ، وفي حيـاتي تتجسد اراد تُك اشكالا واشكالا .

لذاك اكتسيتَ بالجمال ، يا ملك الملوك ، لتسبي فؤادي ، ولذاك يستحيل حبك هياماً بحبيبك ، ونتحد كلانا في اجلى وصال .

٥٧

ايهـا النور ، نوري ، يا غمراً يملأ الكون ، ولثمةً على العين ، وغبطةً في القلب !

آه ! النور يرقص ، حبيبي ، في قلب حياتي . النور يعزف ، حبيبي ، على اوتار حبي . السماء تنفتح ، والريح تسعى نافرة ، والضحك يجوب الافاق .

على يمِّ النور تبسط الفراشةُ جناحيها ، وعلى ذرى امواجه يتعالى الزنبقُ والياسمين .

النور ، حبيبي ، يتكسر ذهباً على كل غيمة ، وينثر الجواهرَ نثرا .

الحبور يشيع ، حبيبي ، من ورقة الى ورقة ، والسرور ليس له حدّ .

نهرُ السماء غمرَ حفافيه ، وموجُ الفرح جازَ الضفاف .

٥٨

ليصدحْ نشيدي الاخير بكلِ نبرات الفرح :

الفرح الذي يهزُّ الارض فتتفجر عشباً متدافعاً كثيفاً ،

والفرح الذي يلج الحياة والموت ، فيرقصان توأمين على مسرح العالم الفسيح ،

والفرح الذي يهبّ مع العاصفة ، فترتعش كلُّ حياة ، وتستيقظ ضاحكة ،

والفرح الذي يرقد هادئاً وسط دموعه ، في زهرةِ الالم الحمراء ، زهرةِ الحندقوق الفاغمة ،
والفرح الذي يبعثر كل ما معه في التراب ، ولا يدري .

٥٩

اجل ، يا حبيبَ القلب ، إن هو الا حبك هذا النور الذهبي الراقص على الغصون ، وهذه الغيوم الكسلى السابحة في الفضاء ، وهذا النسيم الراكض منعشاً مني الجبين .
في نور الصباح ، رسولك الى قلبي ، غمستُ عينيَّ . من شاهقٍ انحنى نحوي محيّاك ، وغاصت عيناك في عينيّ ، ولمس قلبي قدميك .

٦٠

على شاطىء العوالم اللامتناهية اطفالٌ يحتشدون . الفضاء الساكن يمتد رحباً فوق رؤوسهم ، والغمر الهائج لا يقر له قرار . على شاطىء العوالم اللامتناهية اطفال يحتشدون ، ويهتفون ، ويرقصون .
يبنون بيوتهم من الرمل ، ويلعبون باصدافٍ فارغة . من الاوراق اليابسة سوّوا مركباً ، ورموه باسمين على اليم العميق . الاطفال يلعبون على شاطىء العوالم .
لا يحسنون السباحة او القاء الشباك . يغوص الصيادُ على لآلئه ، ويبحر التاجر على مراكبه ، بينا الاطفال يجمعون الحصى ويبعثرون . لا يبحثون عن كنز مخفيّ ، ولا يحسنون القاء الشباك .

الموج الصاعد يضحك ، ويبسم شعاع الشاطىء الشاحب . الامواج المثقلة بالموت تُنشد الاطفالَ الاهازيج كانها ام تهدهدُ طفلها . الموج يلاعب الاطفال ، ويبسم شعاع الشاطىء الشاحب .

على شواطىء العوالم اللامتناهية اطفال يحتشدون . العاصفة تدور في الجو على غير هدى ، والسفن تغور في اليم معدومة الاثر ، والموت جوّابةٌ يترصد ، والاطفال يلعبون . على شاطىء العوالم اللامتناهية حشدٌ من الاطفال عظيم .

٦١

هذا النعاس المرفرف فوق عينَي الطفل — أيدري بشرٌ من اين جاء ؟ نعم ، يقولون انه يسكن قرية مسحورة ، بين ظلال الغاب القاتم ، حيث شعَّ نورُ الحباحب ، وانحنى برعمانِ حييّانِ فاتنان : من هناك جاء النعاس ليلثم عينَي الطفل .

هذه الابتسامة المائجة على شفتَي الطفلِ النائم — ايدري بشرٌ اين ولدت ؟ نعم ، يقولون ان شعاعا شاحبا ، من اشعة الهلال ، لمس حاشيةَ غيمةٍ واهية من غيوم الخريف . وعلى حاشيةِ الغيمة ، في حلمِ صباحٍ نديان ، ولدت ابتسامة ، الابتسامةُ المائجة على شفتي الطفلِ النائم .

هذه النضارة الحلوة الغيناء ، الزاهية في اعضاء الطفل — ايدري بشر اين خبت طولَ هذا الزمن؟ نعم ، يقولون انها كانت سرَّ حبٍ رؤوم ، سراً صامتاً ، شائعاً في قلب الام ، يومَ كانت فتاةً عذراء . في قلب العذراء ، كانت النضارة الحلوة الغيناء ، الزاهية في اعضاء الطفل .

٦٢

عندما آتيكَ بالالعابِ الملوّنة ، يا بني ، افهم لماذا تمرح الالوانُ فوقَ الغيم والماء ، وتلوح في ثنايا الزهور — عندما اعطيكَ الالعاب الملوّنة ، يا بني .

عندما اغنيكَ لترقص ، اعرف حقا لماذا تهزج الموسيقى في الاوراق ، ويلج نشيدُ الموج الى احشاء الارض الناصتة — عندما اغنيك لترقص .

عندما تلتهم يداكَ ما احمله من اقراصِ الحلوى ، اعلم لماذا يتدفق العسل في كمّ الزهور ، والعصير الحلو في صدر الثمر — عندما تلتهم يداك ما احمله من اقراص الحلوى .

عندما الثم محيّاك لتبسم ، عزيزي ، افهم فهمَ اليقين ايّ لذائذ تسكبها السماء في الصباحِ المنير ، واي هناء يحمله نسيمُ الصيف الى جسدي — عندما الثمك لتبتسم .

٦٣

عرّفتَني باصدقاء كنتُ اجهلهم ، وادخلتني بيوتاً غير بيتي . البعيد ادنيتَه ، والغريب جعلته لي اخاً .

يضطرب قلبي عند مغادرتي البيت القديم ، كأن الغابر ليس حيّاً في الآتي ، وكأنك لستَ حيث اسير .

في الولادة والموت ، في هذا العالم او في عوالم اخرى ، انّى تقدْ خطاي ، يا رفيقَ حياتي اللامتناهية ، رفيقي الدائم الوحيد ، فبسلاسلَ هازجة تشدّ قلبي الى عالمي الجديد .

ليس لمن يعرفك غريب ، ليس من بابٍ مقفل . الا استجبْ صلاتي ، ولا تحرمني غبطة لمسك واحداً بين تموّج الكثير .

٦٤

على منحدرِ النهر الموحش ، وبين الاعشاب المتعالية ، سألتها قائلًا : « ايتها العذراء ، الى اين تذهبين بمصباحك ، واقيةً بوشاحك نورَه ؟ ان بيتي مظلم موحش ، الا اعيريني هذا النور ! » . فرفعت نحوي لحظةً عينيها القاتمتين ، وحدّقت بوجهي في نزعِ النهار ، ثم قالت : « انا ذاهبة الى النهر ، كي اسلِم مصباحي لتيأره ، عند غروب النهار » . وبقيتُ وحدي بين الاعشاب المتعالية ، اتأمل نور مصباحها الضئيل ، التائه سدًى في عرض ذاك التيار .

في صمتِ الليل المتكاثف ، سألتها قائلًا : « ايتها العذراء ، كلُّ انوارِكم مشعلة ، فاين تذهبين بمصباحك ؟ ان بيتي مظلم موحش ، الا اعيريني هـذا النور ! » . فرفعت نحوي عينيها القاتمتين ، وظلّت هنيهة مترددة ، ثم قالت : « اتيتُ لاقدمَ مصباحي للسماء » . وظللتُ جامداً اتأمل ذاك النور يحترق سدًى في الفضاء .

في ليلٍ غاب قمرُه ، في نصف ذاك الليل ، سألتها قائلًا : « ايتها العذراء ، عم تبحثين هكذا ، حاملةً مصباحك قريباً من قلبك . ان بيتي مظلم موحش ، الا اعيريني هذا النور ! » فوقفتْ دقيقةً ، وفكرت ، وحدقت بوجهي في الظلام ، ثم قالت : « حملتُ نوري هذا لاشترك بعيد المصابيح »[1] . وظللتُ اتأمل مصباحها الصغير الضائع سدى بين الانوار .

٦٥

ايَ شرابٍ سماويَ ترجوه ، الهي ، من كأسِ حياتي الملآن ؟

اهذه لذتك ، يا شاعري ، في ان ترى خليقتكَ بعينيَ ، وتقف صامتاً ، ناصتاً لالحانك الابدية ، على باب اذنيَ ؟

---

(١) هو عيد شعبي .

في عقلي ينتظم الكونُ كلماتٍ ، وفرحك يُدبّ فيها النغم . تهبني ذاتك حباً ، وفيّ تتحسس عذوبتك الكاملة .

٦٦

تلك التي سكنتْ دائماً اعماق كياني ، في شاحب الشعاع والوميض ، والتي لم تسفرْ يوما في نور الصباح ، ألفُّها بنشيدي الاخير ، يا الهي ، واقدمها لك تقدمة اخيرة .

بالكلام توددوا اليها فاخفقوا ، والاقناع الشهوان عبثاً يمدّ نحوها ذراعيه .

جبتُ من بلاد الى بلاد ، وحفظتها في لبِّ قلبي ، وحولها تماوجتْ حياتي مدّاً وجزرا .

هي مليكة فكري واعمالي ، مليكة نومي واحلامي ، ومع ذاكَ تبيتُ منعزلةً وحيدة .

كثيرون طرقوا بابي سائلينَ عنها ، ثم عادوا يائسين . لم يرَ وجهها بشر في هذا العالم ، وهي تنتظر وحيدةً عساك تذكرها .

٦٧

انتَ السماء ، وانت المهد ايضاً .

يا كلّي الجمال ، في مهدي هذا ، يغمر حبُّك نفسي بالالوان والانغام والعطور .

الصباح يسعى صامتاً ، حاملاً بيمينه سلّةً ذهبية ، ملأى بزهور الجمال ، ليزين بها الارض .

والمساء يسلك سبلاً عذراء الى المراعي المنفردة ، التي هجرها القطيع ،

حامــلًا في ابريقه الذهبي شرابَ الهدوء المنعش ، شراباً استقاه من يمِّ الهدوء الغربي .

اما هناك ، هناك حيث تنبسط السماء لامتناهية لتحلِّق فيها النفس، فمُلكُ الضياء الصافي الناصع . ليس ثمة ليلٌ او نهار ، او شكل ، او لون ، وليس ثمة كلام ابداً ، ابداً .

٦٨

الى مثواي الارضي هذا يهبط شعاعُ شمسك باسطاً ذراعيه ، ويقف امام بابي مدى نهار حياتي ، ملماً غيماً يتصاعد من دموعي وزفراتي واناشيدي ، عائداً به لدى قدميك .

بلذةِ العاشق ، تكسو صدركَ ، المرّصع بالنجوم ، هذا الغيمَ الشفّاف ، ثم تطويه وتنشره اشكالًا شتى ، واصباغاً متبدلة .

انه لرداءٌ واهٍ خفيف ، رداءٌ لدنٌ قاتم نديان . لهذا تحبّه انتَ الطاهر الهادىء. لهذا تحني في ظلاله الرائعة رهبةَ نوركَ الصافي .

٦٩

ان الحياة المندفعة ، الزاخرة في عروقي نهاراً وليلًا ، هي نفسها تزخر في الكون نبّاضة ، موزونة ، راقصة .

وهي نفس الحياة الطروب تشقُّ اديم الارض نباتاً غضاً ، وتتدفق كالموج الهائج ورقاً وزهرا .

وهي نفسها تتماوج مدا وجزرا في اليم ، مهدِ الولادة والموت .

هو مجدٌ لاعضائي ان ألامسَ عالم الحياة هذا ، وهو فخرٌ لي ان ترقص في دمي ، الساعةَ ، حياةٌ خفقتْ بها الاجيال .

٧٠

ايفوتك ، يا ربّ ، ان تشترك في بهجةِ هذا الهزج ، وان تطفر تائها في الفضاء ، مخطوفاً في زوبعة هذا الفرح الهائل ؟

كل شيء تيارٌ مندفع ، لا يلتفت الى الوراء ، او تستطيع قوةٌ ايقافه – كل شيء تيار .

على نغمِ هذا الهزج السريع المتصل تجري الفصولُ راقصةً متعاقبة . والالوان والانغام والعطور تتدفق شلالاتٍ ابدية في فيضِ هذا الفرح ، الفرح الذي يتناثر ابداً ، فانيا ، مندثرا .

٧١

ان ينمُ كياني الذاتي ، منتشراً في كل جانب ، باسطاً على سناك ظلالاً ملوّنة – فذاك حقيقة « ميأك » [1]

على كيانكَ تسدل قناعاً ، وبربوات الانغام تدعو كيانكَ المحجوب . وان ازدواجك هذا قد تجسد فيّ .

يتدفق غناؤك الشجي فتعكسه صفحةُ السماء دموعاً ملوّنة وابتسامات ، او تعكسه املاً وخوفاً . موجاتٌ تعلو وتندثر ، رؤى تتصدع وتلتئم . انا موعدُ وغىً تصرع فيه نفسك بنفسك .

وحجابُك هذا المسدول تزينه ريشةُ الليلِ والنهار بالآف الرسوم . وراءه حكتَ عرشك من عجيبِ اسلاك ملتوية سرّية ، طارحاً كل خطٍ مستقيم صريح .

---

(١) ميأ هي عالم الوهم المحسوس ، الذي يحجب عنا الكائن الحقيقي الوحيد .

في مهرجانٍ عظيم اتهادى واياك عرضَ السماء . الهواء يرتعش على ائتلاف اغانينا ، وتتعاقب الاجيال بينا نتستر ونتطارد .

٧٢

هو نفسه ذاك الوحيد ، ساكنُ الاعماق ، الذي يوقظ اغوارَ كياني بلمسه الخفيّ .

وهو نفسه يغمر عينيَّ بسحره ، ويوقع طرباً على اوتار قلبي انغاماً شتّى من فرحٍ ومن غم .

وهو نفسه ينسج من « مياه » زائلَ اصباغه ، اصباغاً ذهبية وفضية ، زرقاءَ وخضراء ، ثم تلوح قدماه من ثنايا النسيج فالمسهما ، واغيب عن نفسي .

تمر الايام وتفنى الاجيال ، وهو ابداً يثير شعوري لاسمٍ او شكل ، لرعشةِ فرحٍ او غم .

٧٣

لا ارى النجاةَ في الزهد ، واني لاشعر بعناقِ الحرية ، وانا مكبّلٌ بالاف اللذائذ .

ان كأسي الخزفي هذا ليطفح بدفقِ خمرتك المنعشة ، الخافقة بالالوان والعطور .

من لهبِ نورك يُشعل عالمي مئاتِ مصابيحه ، ويزين بها مذبحَ هيكلك .

لا ! لن اغلقَ ابداً ابوابَ حواسي ! وانها غبطةٌ لك ان تغشى اللذائذُ نظري وسمعي وملمسي .

اجل ، كل اوهامي ساحرقها شعلةً راقصة ، وكل مناي ستنضج ثمارَ حب .[1]

---

(١) يعرّض في هذا النشيد بنوع من الزهد الهندي يقوم على قتل كل ميل في الانسان ، حسناً كان ام سيئاً .

٧٤

زال النهار ، وغشي الارضَ الظلام . انها ساعة ورودي التيار لاملأ الابريق .

يعلو من الماء نغمٌ كئيب ، واذا هواء المساء شهوان ، واذا هو يدعوني خارجاً الى الظلام . الطريق قفرٌ لا يطأها عابر ، والريح هبّت عاصفةً ، والامواج تنتصب عرضَ النهر .

ترى هل اعود ؟ وما عسى الحظ يخبّيء لي من مواعيد ؟ هناك ، قربَ مَعبرِ النهر ، وفي الزورقِ الصغير ، يعزف الرجلُ المجهول على عوده .

٧٥

تُشبع هباتُك كل رغائبنا ، نحن البشر ، ثم تعود كاملةً اليك .

يُتمّ الجدولُ عملَه اليومي ، مسرعا بين القرى والحقول ، ولكن سيلَه المتواصل ينثني الى غسلِ قدميك .

عبيرُ الزهرة عذوبةٌ في الهواء ، ولكن نفعَها الاخير تقدمةُ ذاتها لك .

عبادتك لا تفقر الكون .

في قصيدةِ الشاعر يرى الناسُ ما يروقهم من معانٍ ، اما معناها البعيد فايماء اليك .

٧٦

أأقفُ يوماً بعد يوم ، يا سيّدَ حياتي ، اأقف امامك ، وجهاً لوجه ؟ يا سيد العوالم ، أأقف امامكَ ضارعَ اليدين ، وجهاً لوجه ؟

تحت رحبِ سمائك ، في صمتِ الوحدة ، واتضاعِ القلب ، هل اقف امامك وجهاً لوجه ؟

في عالمك الشاقَ هذا، الصاخبِ بالعناء والصراع، وسطَ جلبة الجوع، هل اقف امامك وجهاً لوجه ؟

وعندما انهي عملي في عالمك هذا، يا ملك الملوك، هل اقف امامك صامتاً وحيداً، وجها لوجه ؟

٧٧

اني اعرفك الهاً لي، وابتعد عنك – ولست اعرفك مُلكا لي فاقترب.

اني اعرفك اباً، واجثو لدى قدميك – ولست آخذ يدك كأنها يدُ صديق.

انك تطأ ارضنا لتهبني نفسك، ولست اتهيأ لاضمّك الى قلبي، واتخذك رفيقاً.

انت الاخ بين اخوتي، ولست اعنى بهم، او اقاسمهم ارباحي، فاقاسمك هكذا كلَّ مالي.

ساعةَ اللذة والالم، لستُ ادنو من البشر، فادنو هكذا منك. لست اكفر بحياتي فاغوص في خضمِ الحياة الرحب.

٧٨

في فجر الخليقــة، حينَ سطعت النجومُ كلُّها في سناها البكر، التأمَ الالهة في السماء وهزجوا: «ما اكمله رسما، واصفاه هناء!».

انما بغتةً هتف احدهم: «احسُّ ثغرةً في جدولِ النور هذا، وان نجمةً قد ضاعت».

عودُهم انبتَّت اوتارُه الذهبية، وغناؤهم انقطع، وصرخوا مذعورين: «كانت اجملَ النجوم تلك النجمةُ الضائعة، وزينةَ السماوات!».

منذ ذاك اليوم وهم يبحثون عنها ، ويتأوهون واحدا بعد اخر : « بضياعها فقد العالمُ هناءَه الوحيد ! » .

ولكن النجوم ، في هدأة الليل العميقة ، تبتسم متهامسة : « باطلٌ هذا البحث ! الكلُّ كاملٌ متصل ! » .

٧٩

ان لم تُتحْ لي لقياك في الحياة الدنيا ، فلأسفنَّ ابـداً على فوات رؤياك – اسفاً لا انساه لحظة ، وتنغِص حرقةُ ذكراه يقظتي واحلامي .

فيما تزول ايامي بين رهطِ المتاجرين ، وتمتلىء يدي ارباحاً يوما بعد يوم ، لاشعرنَّ ابداً باني لم اربـح شيئاً – شعوراً لا انساه لحظةً ، وتنغص حرقةُ ذكراه يقظتي واحلامي .

عندما اقف على حافةِ الطريق تعباً لاهثاً ، واسوّي في التراب مضجعاً ، لاشعرنَّ ابداً بان سفري لا يزال طويلا – شعوراً لا انساه لحظة ، وتنغص حرقةُ ذكراه يقظتي واحلامي .

عندما تزدان غرفي ، وتدوي بهزجِ الناي والقهقهات ، لاشعرنَ ابداً باني لم ادعُك الى بيتي – شعوراً لا انساه لحظة ، وتنغص حرقة ذكراه يقظتي واحلامي .

٨٠

اني كباقةِ غيمٍ ضائعة في سماء الخريف . فمتى ، يا شمسَ السناء الخالد ، يذيب لمسُك ضبابي ، فاتحد بنورك ؟ اني لاحسب شهورَ سفري ، واحسب اعواماً تفصلني عنك .

ان لذَّ لك وطاب ، فالهُ بي ، اقبضْ على كياني المتقلبِ الحالي ، وزِنه بالالوان ، واطله بالذهب ، ودعه يسبح على الريح الشهوى ، ويتناثر آياتٍ وايات .

ثم اذا طاب لك ، عند حلول الليل ، ان تكفَّ عن هذا اللهو ، فاني ساذوب ، واغور في الظلام ، او قد اغور في ابتسامةِ الصباحِ النقيّ ، في صفاء الطهر الندیان .

٨١

كم مرةٍ ، في ايام كسلي ، بكيتُ الوقتَ الضائع . ولكنه لم يضع ، يا رب ، فقد لمستْ يداك كلَّ لحظةٍ من لحظات حياتي .

احتجبتَ في قلب الاشياء تغذي البذرة حتى تنبت ، والبرعمَ حتى يزهر ، والزهرة البالغة حتى تثمر .

غفوتُ تعباً على سرير كسلي ، وتوهمتُ كلَّ عملٍ انقطع . وحين استيقظتُ صباحا ، وجدتُ حديقتي ملأى بالبدائع والزهور .

٨٢

وقتكَ لامتناهٍ ، يا رب ، وليس من يحسب عليكَ ثوانيك .

تنفد الايامُ والليالي ، والاجيال كالزهور تزهر وتذوي ، وانتَ هادىء تنتظر .

الاحقاب تتوالى كي تكتملَ زهرةُ الصحراء النحيلة ، اما نحن فليس لدينا وقتٌ نبذّره ، ليس لدينا وقت ، فيجب ان نكدَّ لندرك ما لنا من حظوظ . انّا لأفقرُ من ان نتماهل .

اني انفق وقتي على كل شاكٍ يدّعيه ، بينا يظل مذبحك خالياً من القرابين ، عاريا .

عند المساء اجدُ في السير ، لئلا اجدَ بابك مغلقا . ومع ذاك لا اظنّ الوقت فات .

٨٣

دموع كآبتي لآلىء ، سانظمها لكِ عقداً ، يا اماه .

النجوم تحوكُ نورَها خلاخلَ لزينةِ قدميك ، اما هديتي فزينة على صدرك .

منكِ الغنى والجاه ، تمنحينَ من شئتِ وتحرمين . اما كآبتي هـذه فمني وحدي ولي ، احملها اليكِ هديةً ، وانال منكِ ثوابا .

٨٤

هي غصّة الوداع تشيع في الكون ، وتبـدع شتى الاشكال في لامتناهي الفضاء .

وهي كآبةُ الوداع ترنو صامتة ، مدى الليل ، من نجمٍ الى نجم ، وتحول نغماً بين الاوراق الموسوسة في ظلمةِ تموز الماطر .

وهو هذا الالم الطامي يغشى المنازلَ البشرية ، فيعمُق فيها حباً ومنى ، احزانا وافراحا ، ويلج قلبي ، انا الشاعر ، فيذوب فيه دفقاً من الاناشيد .

٨٥

اين اخفى الجنودُ قوّتهم ، يوم غادروا قصر ربّهم ؟ اين كانت عدّتهم وسلاحهم ؟

كانوا كفقراء عاجزين ، وكانت السهام تتساقط عليهم ، يوم غادروا قصر ربهم .

اين اخفى الجنود قوتهم ، يوم آبوا الى قصر ربهم ؟

رموا السيوف ، ورموا القسيَّ والسهام . خلّفوا وراءهم ثمارَ حياتهم ، وتألقَ جبينهُم بالسلام ، يوم آبوا الى قصر ربهم .

٨٦

على بابي ، ايها الموت ، وقفتْ جاريتك ، وقد عبرتِ البحر المجهول ، حاملةً دعوتكَ الي .

الليل بهيم ، وقلبي واجف ، ولكنني سأتناول المصباح ، وانحني امامها مرحبا : هي رسولُك اليّ ، هذه الواقفةُ على بابي .

سأقف خاشعاً لديها ، واكرّمها بدموعي ، ساكبا كنز قلبي على قدميها .

وانها ستعود اليك ، وقد اتمّتْ رسالتها ، تاركةً على صباحي ظلّها القاتم . ويخلو بيتي المفجوع ، ولا يبقى لي سوى نفسي ، اقدّمها لك قرباناً اخيرا .

٨٧

آيسني الانتظار ، فذهبتُ ابحث عنها في كل زوايا منزلي . ولكن لم اجدها .

ان منزلي ضيق ، وما افلتَ منه مرةً ، لن استطيع استرجاعه ابداً .

اما قصركَ فرحب ، يا رب ، وبينما انا ابحث عنها ، انتهيتُ الى بابه .

تحت قِبابِ سمائك الذهبية وقفتُ ، والى محيّاكَ رنت عيناي .

لقد بلغتُ شاطئ الابدية ، حيث يصان كلُّ شيء . — كلُّ امل ، وكل هناء ، وكل رؤيا وجهٍ لاح في كدرةِ الدموع .

الا اغمسْ في هذا الخضمّ حياتي الفارغة ، وغصْ بها في اعماقه المترعة .
دعني احسّ مرةً في الكون ، كلِّ الكون ، هذا اللمس العذب الضائع .

٨٨

يا الهَ الهيكل الخرب ، ان اوتارَ العود المقطوعة لن تعزف تسابيحك ، واجراسَ المساء لن تعلن ساعةَ عبادتك ، والهواءَ سيلفُّك بصمته !

الى منزلِكَ الموحش يلج نسيم الربيع الشريد . انه ينقل اليكَ انباء عن الزهور – عن زهورٍ لن تقدَّم بعد اكراما لك .

عابدُكَ القديم تائهٌ ابدا مشتاق اثرَ نعمةٍ ممنوعة . وحين يحلُّ المساء ، وتمتزج الانوارُ والظلال في عتمةِ الغسق ، يعود حزيناً الى هيكلك الخرب ، والعوزُ في قلبه .

كم عيدٍ لا يحمل اليك سوى الصمت ، يا اله الهيكل الخرب ! كم ليلٍ ، معدّ لعبادتك ، ينقضي ولا يُشعل فيه مصباح !

كم رسمٍ جديد ابدعته يدُ الفنانِ الماهر ، وجرفه تيّار النسيان المقدّس ، عندما حان الوقت .

اما انتَ ، يا الهَ الهيكلِ الخرب ، فتبقى على الدهر ، مهملا ، غيرَ معبود .

٨٩

صرتَ تحرّم ، يا رب ، الحديثَ الصاخب ، والصوتَ العالي . لهذا ساعمد الى الوشوشة ، واتابع حديثَ قلبي في اغنية هامسة .

يتهافتُ الناس نحو سوقِ الملك ، وقد حضر الباعةُ وحضر الشراة .
اما انا فسُرّحتُ من العمل قبل الاوان ، في نصفِ النهار ، وأقصى الكد .

دع اذاً زهورَ حديقتي تتفتح قبل الاوان ، ونحلَ الظهيرة ينشد طنينَه الكسول .

انفقتُ ساعاتٍ عديدة في الصراع القائم بين الخير والشر ، اما الان فيلذ رفيقُ ايامي الفارغة ان يدعو قلبي اليه . ترى ما هذه الدعوة المفاجئة ؟ وما هذا الانقلاب الباطل ؟

٩٠

ما عساكَ تُهدي للمنيةَ ، يوم تقرع بابك ؟

اه ! ساضع امام زائرتي كوبَ حياتي الملآن ، ولن اسمح ابداً بان تعودَ فارغة اليدين .

كل ما جنيتُه من حلو العنب في ايام خريفي وليالي الصيف ، وكل ما كسبتُ من كدِّ الحياة وحصدت ، ساجمعه هديةً في نهاية ايامي ، يوم تقرع المنيةُ بابي .

٩١

ايتها المنيَّةُ ، منيَّتي ، يا خاتمةَ حياتي ، تعالي اليَّ واهمسي في اذني !

في انتظاركِ سهرتُ الايام ، ولاجلك عانيتُ افراحَ الحياة واحزانها .

لقد سعيتُ سراً اليكِ ، انا وكلّ مالي ، واملي ، وحبي . هي لحظةٌ اخرى من عينيكِ ، وتملكين حياتي مدى الابد .

لقد ضفروا الزهور ، واحضروا الاكليل للعريس . بعد العرس ، تهجر العروسُ منزلها ، وتلقى مولاها وحيدة ، في خلوة الليل .

٩٢

انا اعلم أنه سيأتي يوم تغيب فيه الارض عن نظري ، وتنسلُّ مني الحياةُ دون جلبة ، مسدلة اخر ستار على عينيّ .

ومع ذاك ، ستظلُّ النجومُ ساهرةً في الليالي ، ويطلّ الفجر كالبارحة ، وتنتفخُ الساعاتُ كامواجِ البحر حبلى باللذة والالم .

عندما افكّر بانقضاء لحظاتِ حياتي ، تتدثر حواجزُ اللحظات ، وأرى على نورِ الموت كلَّ ما في كونكَ من كنوزِ الدلال . احقرُ منزلٍ فيه جميل ، وابغضُ حياةٍ عزيزة .

الا ازهدي ، يا نفس ، بكل ما اشتهيتُ من خيراتٍ باطلة ، وملكتُ . وتلك الخيرات الحقة التي احتقرتُها ابداً واغفلتُ ، بها وحدها تعلّقي .

٩٣

لقد سُرّحتُ من الخدمة ، فتمنّوا لي ، اخوتي ، سفراً ميموناً ، واذنوا لي بالرحيل .

ها انا اعيد المفاتيح الى بابِ منزلي ، متخلياً عن كل حقّ عليه . زودوني فقط ، عند الفراق ، ببعضِ كلماتٍ حلوة .

لقد تجاورنا طويلا ، واخذتُ منكم فوق ما استطعت ان اعطي . والان لقد اطلّ الفجر ، ونفد نورُ المصباح ، النورُ الذي اضاء زاويتي المظلمة . انّ صوتاً يدعوني ، واني لمستعدٌّ للرحيل .

٩٤

هذه ساعةُ الرحيل ، فادعو لي بالتوفيق ، انتم يا احبائي ! الفجر حمرةٌ شائعة في السماء ، والطريق فسيحة ساحرة .

لا تسألوني عمّاً احمل . اني اسافر فارغَ اليدين ، طافحَ القلب بالامل .

باكاليلِ العرس زنتُ جبيني ، وخليتُ رداءَ السائح الاغبر . كثيرةٌ مخاطرِ الطريق ، ولكن قلبي لا يخامره خوف .

في نهايـة سفري ، تطلع نجمةُ المساء ، ومن تحت قِبابِ المَلِك تعلو نغماتُه الشاكية .

٩٥

لم اعِ لحظةَ أتيتُ فيها الحياة . ألا ايّ قدرةٍ فتحت عينيَّ على هذه الارجاء المجهولة ، كما تتفتحُ زهرةُ الغاب في قلب الليل ؟ !

عندما ابصرتْ عيناي نورَ الصباح ، لم اشعرْ بغربةٍ على هذه الارض . وما كنتُ اجهلُه شكلاً واسما ، احسسته اماً تضمني بين ذراعيها .

عند موتي ايضاً ، سيلقاني نفسُ المجهول كصاحبٍ قديم ، وساحبُ الموت لاني احبُّ الحياة .

يصرخُ الطفل حينَ تسلبه الام ايمنَ ثدييها ، ويرضى بعدَ لحظةٍ ناهلاً ثديَها الآخر .

٩٦

ليكن هذا وداعي للدنيا ، حينَ ابارحها : لا اجمل مما رأيت !

لقد ذقتُ عسلَ الحندقوقِ الخفيّ ، الحندقوقِ المتهادي عـلى خضمِ النور ، وكان ذاك بركةً لي — ليكن هذا وداعي للدنيا .

لقد لهوتُ في هذا القصرِ الغنيّ بالاشكال ، وابصرتُ من ليس له شكل .

لقد لمستُ غير الملموس ، فارتعشَ مني الاعضاء والجسد . اه ! ان كان حان الاجل ، فليحلّ ! — وليكن هذا وداعي للدنيا .

٩٧

عندما كنّا نلعب معاً ، لم اسألكَ يوما من انت . كنتُ اجهل الحياء والخوف ، وكنتُ حياة هوجاء .

ببساطةِ الرفيق ، كنتَ توقظني في الصباح، وتجذبني وراءك عدْواً بين فسحاتِ الغاب .

في ذلك الوقت ، ما كنتُ لاهتمّ بمعنى اغان تغنيها لي . كان صوتي يردد الحانك ، ويرقص قلبي على ايقاعها .

اما الان ، وقد فرغنا من اللعب ، فاي رؤيا تفاجئني ؟ ان العالم ، بكل ما فيه من نجمٍ صامت ، واقفٌ برهبة ، خافضٌ طرفه الى قدميك .

٩٨

سأزينكَ بالاسلاب ، باكاليلِ هزيمتي . واني ابداً مغلوب في صراعي معك .

اجل اني اتوقع بثقة اندحارَ كبريائي ، واعرف ان حياتي ، في ذروة العناء ، ستهدمُ حواجزها . اذ ذاك ستتعالى من قلبي الفَارغ ، كما من قصبة جوفاء ، شهقاتٌ تُبكي الحصى القاسي .

اجل ان زهرةَ الخندقوق لن تبقى برعماً منكمشا ، بل ستتفتح عن كنزِ عسلها المحجوب .

في السماء الزرقاء عينٌ ترمقني ، وتدعوني سرا . لن يبقى لي شيء – ايُّ شيء – وعند قدميك سألقى الموتَ الكامل .

٩٩

انا اعلم انكَ ستستلم الدّفة ، حين اخلّيها ، وتعمل في لحظة ما يجب عمله ، وانّ عنائي لباطل .

حينئذ ، خلِّ الدفةَ ، يا قلبي ، وارضَ صامتاً عن هزيمتك ، واحسب من حسن حظكَ ان تستقر هادئا حيث وضعوك .

اقلُّ هبَّةِ ريح تطفىء مصابيحي هذه ، وفي جهدي لاشعالها انسى ابداً كلّاً ما سواها .

انما هذه المرة ساكون حكيماً ، سانتظر في الظلمة ، فارشاً حصيري في صحن الدار . فاذا راق لكَ يوماً ، يا رب ، فادنُ دون جلبة ، واجلس هنا على مقعدك .

١٠٠

اغوص في اعماق يمّ الاشكال ، لعلّي اصيب اللؤلؤةَ الفريدة ، العارية من كل شكل .

تركتُ السفر من مرفأ الى مرفأ ، على زورق تصفعه الانواء . لقد مضى زمن كنت الهو به في مصارعة الموج .

اني اصبو الان الى الموت في حضنِ من لا يموت .

في ردهةِ الاستقبال ، على شفيرِ هاوية ، ليس لعمقها غور ، ولا لموسيقاها لحن ، سأتناول معزفَ حياتي .

على لحنِ الابدي ، ساضرب عليكَ ، معزفي ، وبعد ان تشهقَ شهقتك الاخيرة ، ساضعك صامتاً عند قدمي الصامت .

١٠١

مدى حياتي ، سعتْ في اثرِكَ اغانيَّ ، وبها اهتديتُ من باب الى باب . بها بحثتُ عن العالمِ المحدق بي ، وبها احسسته ولمست .

هي علّمتني كلَّ ما اعلم ، وهدتني السبلَ الخفيّة ، وأرتني في افقِ قلبي كواكبَ و كواكب .

وهي قادتني طيلة النهار الى البقاع المجهولة ، بقاعِ اللذة والالم . اما الان ، وقد حلَّ المساء وانتهى سفري ، فعلى بابِ ايّ قصر عساها تنتهي بي ؟

١٠٢

امامهم فاخرتُ بمعرفتكَ ، وفي كل اثاري تبينوا رسمك . أتوا يسألوني عنك : « قلْ لنا ، من هذا ؟ » . عييتُ عن الجواب ، ومن يستطيع حقاً ان يجيب ؟ لاموني وانصرفوا هازئين ... وبقيتَ معي باسم الثغر رضيّا .

حدّثتُ عنكَ في اناشيد خالدة ، وفاض قلبي بمكنونه . اتوا يسألوني عنها : « قل لنا ، ما معانيها ؟ » . عييتُ عن الجواب ، ومن عساه يدرك ما تعني ؟ ابتسموا وانصرفوا هازئين ... وبقيتَ معي باسم الثغر رضيّا .

اللهمَّ ، أرهفْ حواسي ، ومرّغها في عالمكَ هذا ، موطىء قدميك ، تحية لك .

كغيمٍ تموز الماطر ، ينوء بالمزن المحبوس ، لاخفضنَّ رأسي على بابكَ ، تحية لك .

لتأتلفْ كلُّ نغماتِ اغانيّ لحناً واحدا ، يغور في يمّ الصمت ، تحية لك .

كسربٍ من الرهو ، الحَّ عليه الحنـين ، فآب الى اعشاشه الجبلية ، طائراً لا ينام ، لارحلنَّ بحياتي الى مقرها الابدي ، تحية لك .

تمّ

طُبع من هذا الكتاب ١٢٠٠ نسخة
منها ٢٠٠ على ورق « ريجستر »

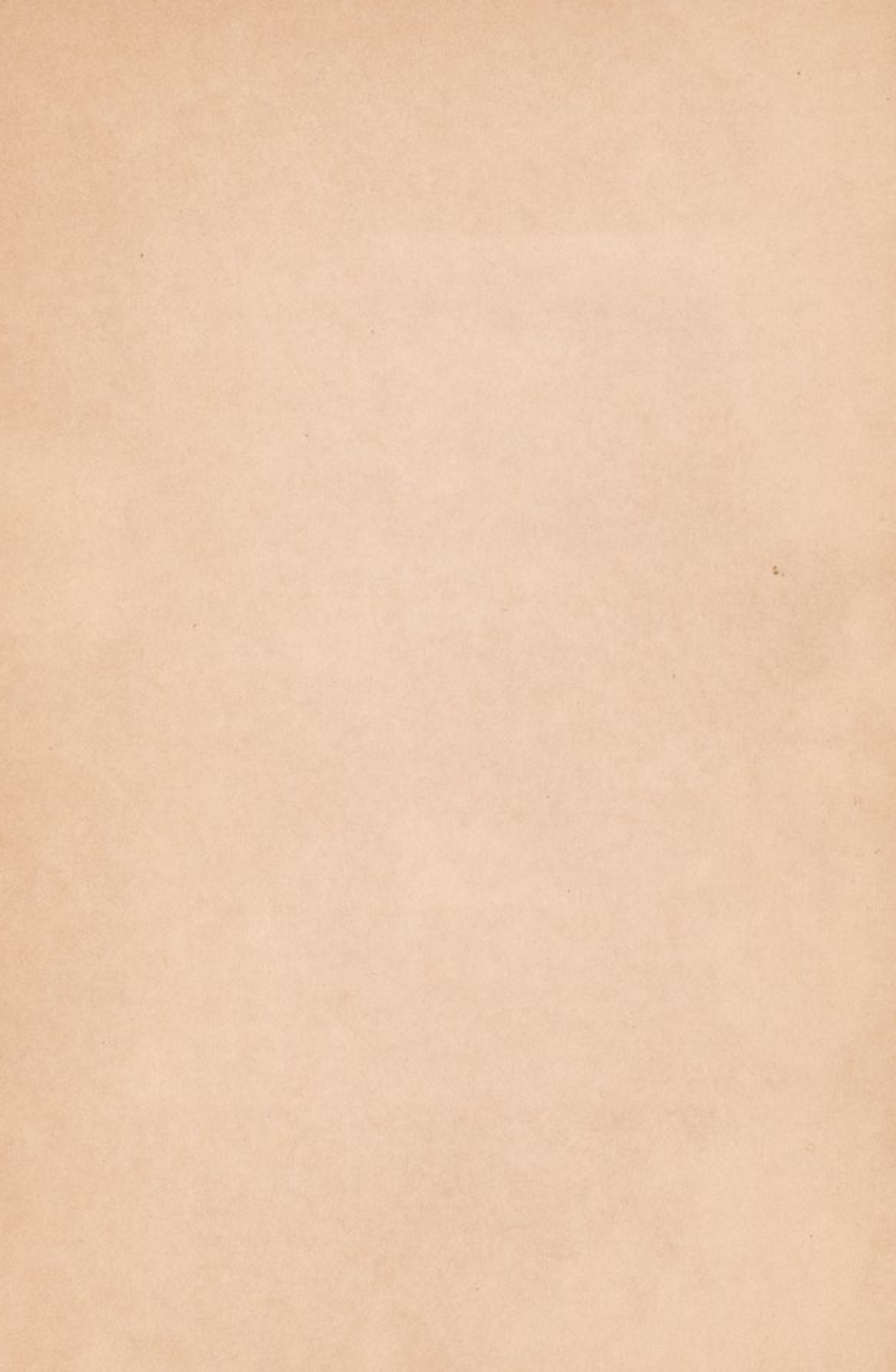
وقعت بعض اغلاط يسهل على القارئ اصلاحها

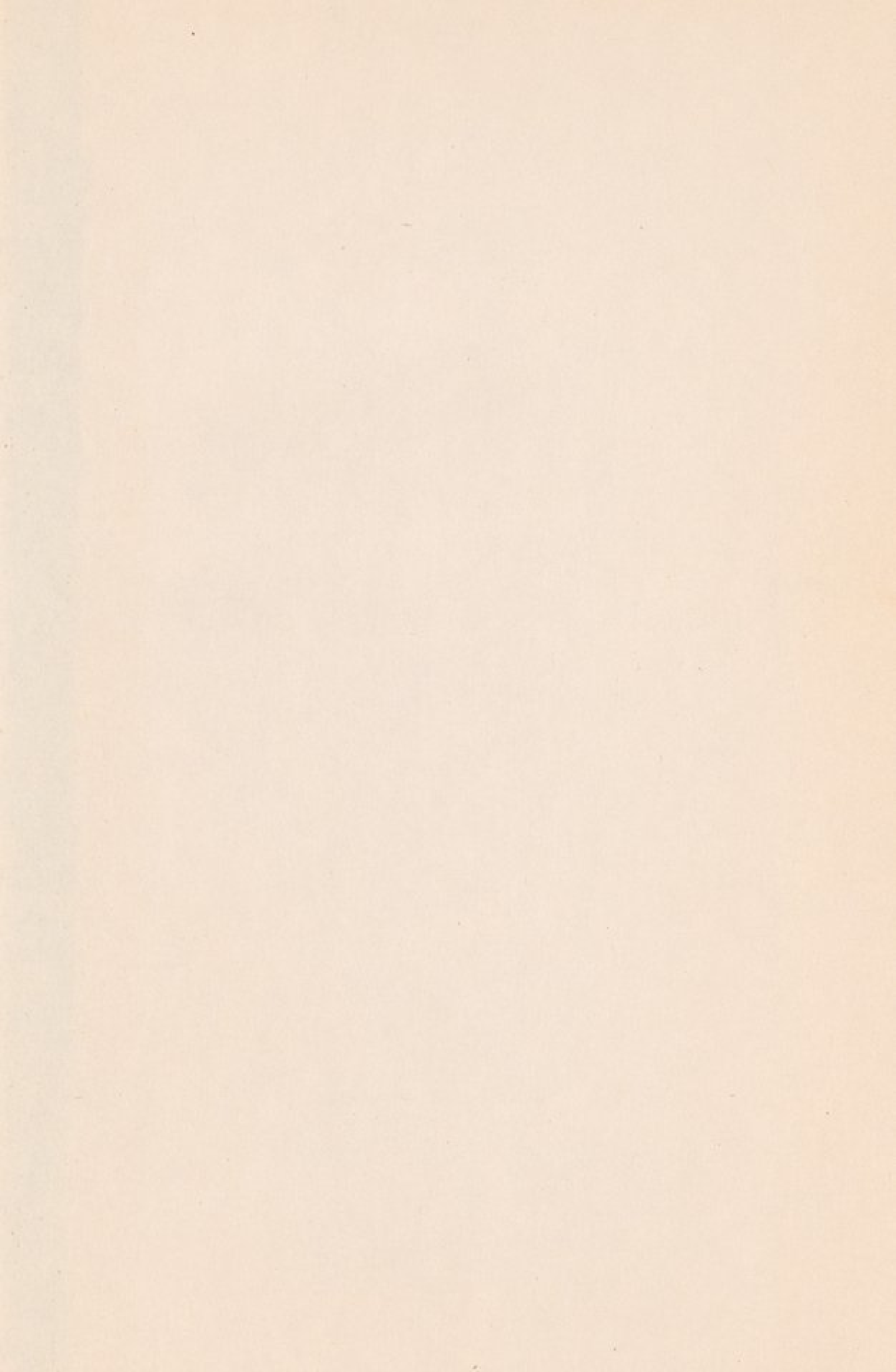
تمّ طبع هذا الديوان في العشرين من شهر نيسان

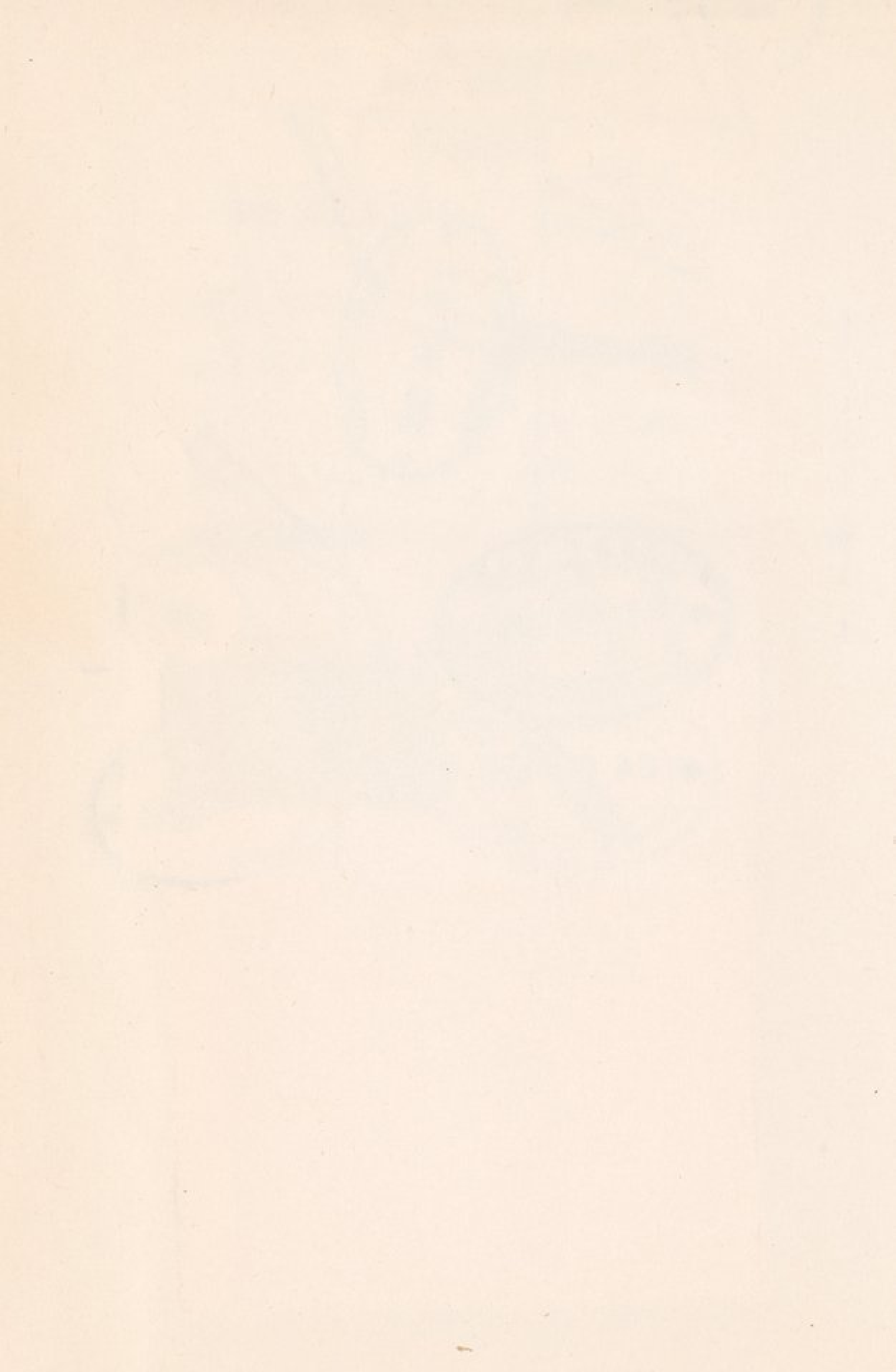
١٩٤٨

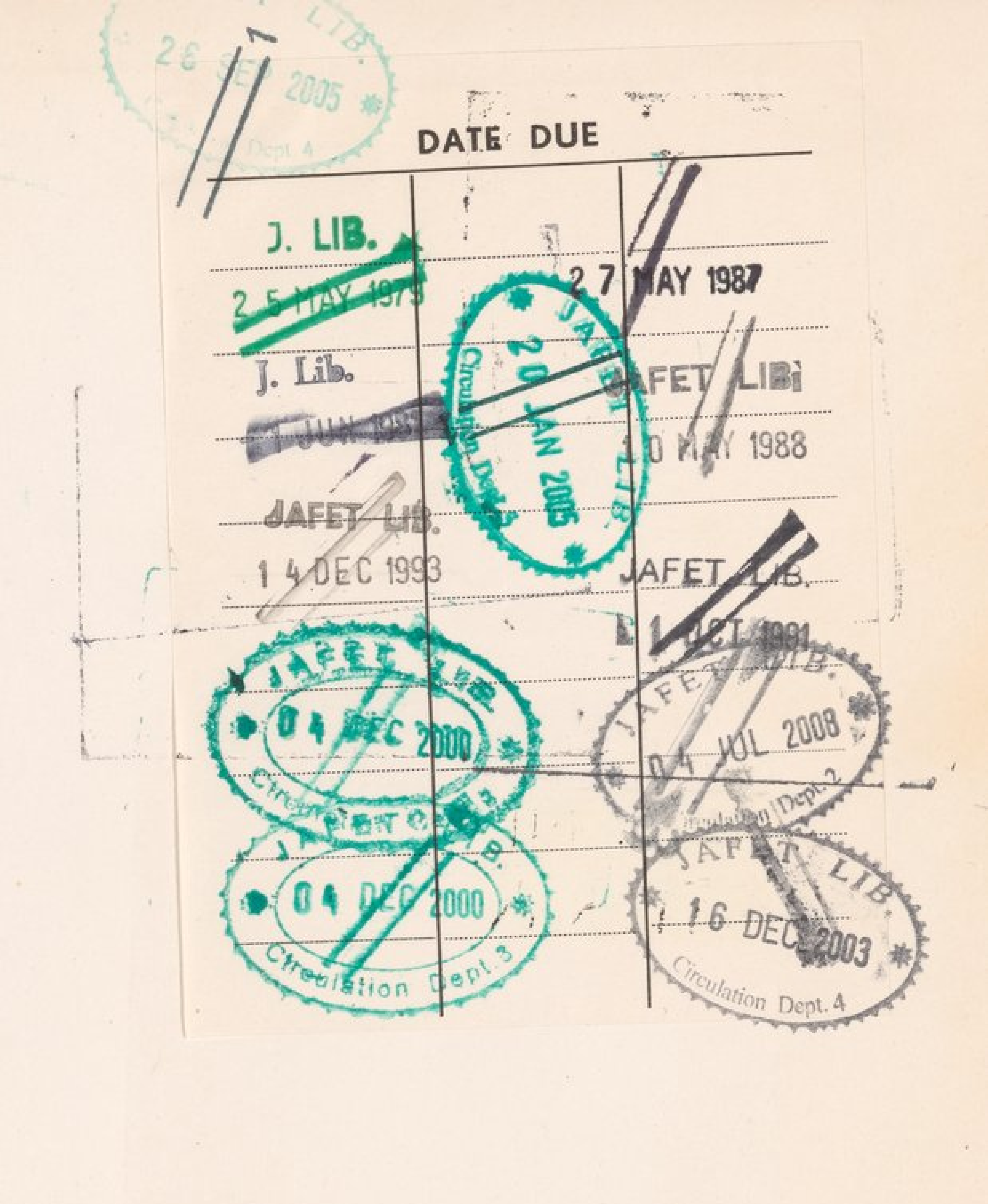
مطبعة المرسلين اللبنانيين

جونيه ، لبنان








DATE DUE
J. LIB.
2 5 MAY 1979
J. Lib.
2 7 MAY 1987
JAFET LIB.
10 MAY 1988
JAFET LIB.
14 DEC 1993
JAFET LIB.
04 DEC 2000
Circulation Dept. 3
04 DEC 2000
Circulation Dept. 3
JAFET LIB.
04 JUL 2008
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
16 DEC 2003
Circulation Dept. 4
20 JAN 2005
28 SEP 2005
Dept. 4


قمير ،يوحنا (الأب)
قربان الاغانى
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032069

